على الدرب . . .
مع الطيب صالح

ملامح من سيرة ذاتية

طلحة جبريل





طلحة جبريل

حوار قصير

الطيب صالح: ألا يكفيك كل هذا الذي قلته؟.

طلحة جبريل: هذا حديث ذو شجون، لكن لا أود أن أثقل عليك.

الطيب صالح: يا أخي من الذي سلطك علي؟.

طلحة جبريل: أهمية وعمق ما كتبت!.

الطيب صالح: اقول لك صادقا ليس لدي أي إحساس بأهمية ما كتبت، ولا أحس أنني مهم، هذا ليس تواضعاً لكنها الحقيقة، إذا اعتقد الناس أن ما كتبته مهم فهذا شأنهم ... لكنني أنا قطرة في بحر.

قصيدة واحدة للمتنبي تساوي كل ما كتبته وأكثر...

طلحة جبريل: لكن في هذا تواضعاً شديداً...

الطيب صالح: لا ... لا ... الله يرضى عليك ... هذه هي الحقيقة.

طلحة جبريل: لا تعليق!.

• على الدرب ... مع الطيب صالح
ملامح من سيرة ذاتية
طلحة جبريل

• الايداع القانوني : 1997 - 288
• ردمك : 9981-9874-2-5
• تصميم الغلاف : طارق جبريل

• التصفيف والإخراج الفني : توب للاستثمار والخدمات 11 شارع الابطال رقم 2
هاتف : 777429/20(2127) فاكس :777442
اكدال - الرباط - المغرب

على الدرب . . .
مع الطيب صالح

ملامح من سيرة ذاتية

طلحة جبريل

الناشر

توب للاستثمار والخدمات (الرباط)

مركز الدراسات السودانية (القاهرة)



إلى أخي . . .

كمال سابل عبد الحليم



ولله سيْرى مـــــــا أقــلّ تئيةً
عشّيةً شرقيّ الحـــــدالى وُغّربُ
عشيةً أحفى الناس بى من قَلوْتهُ
وأهـــــدى الطريقين التى أتجنبُ

ابو الطيب المتنبّى



أول الدرب

شكل الطيب صالح جزءاً من وعينا ووجداننا ، نحن أبناء الجيل الذي جاء الى هذه الدنيا في مطلع الخمسينات . . . سنوات المتغيرات والاندفاع ، سنوات البحث عن الهوية الوطنية والاستقلالات التي لم تكن تعني سوى العلم والنشيد والحصول على مقعد في الأمم المتحدة . . . ، سنوات الأحلام الكبرى . . . والخيبات الكبرى كذلكً .

جيلنا ، جيل الاندفاع ، باعدت بينه وبين الجيل الذي خاض غمار معركة الاستقلال سنوات كثيرة ، وسبقه الجيل الذي بنى دولة ما بعد الاستقلال .

الجيل الذي وجد نفسه حين بدأ مراهقته محاطاً بالهزائم والطموحات المجهضة ، جيل حين بلغ الثلاثينات كان بدون بوصلة . . . وكان العالم قد وصل الى ثمانينات القرن العشرين .

قرأ جيلنا (موسم الهجرة الى الشمال) في مطلع السبعينات ، السنوات الأكثر إحباطًا .

قرأنا الطيب صالح ولم نستوعب قطعاً هذه اللغة الروائية الجديدة ، وهذا النفس الحار الذي ضمخ الرواية العربية والعالمية بالشذا والدرر النفيسة .

قرأناه وكان عالمنا العربي في حالة انكسار مُرة ،بعد نكسة 1967 . والحرب الباردة مستعرة لتفرز حروباً صغيرة هنا وهناك .

الماركسية كادت أن تتحول الى دين ، والرأسمالية بالنسبة لنا رديفة لكل شيء بشع .

كانت سنوات الانقلابات التي جاءت تحمل شعاراتها الثورية فوق الدبابات والعربات المجنزرة ، سنوات الثورات التي ما أن تخمد حتى تنشب من جديد ، ولا أحد يفسر لنا كيف . . . ولماذا؟

حين قرأنا الطيب صالح كان السودان بلداً ، والخرطوم عاصمة . نحتفل بميكيس ثيودوراكيس الذي وضع موسيقى فيلم Z في سينما كولوزيوم ، ونحمله فوق أعناقنا بزهو وافتخار .

تشدنا جرأة سيدني بواتيه في سينما النيل الازرق "BLUE NILE" في فيلم «ضيف على العشاء» ، ونستحضر جملة الطيب صالح الرائعة : «الإنسان لمجرد أنه خلق عند خط الاستواء بعض المجانين يعتبرونه عبداً وبعضهم يعتبرونه إلهاً» .

قرأنا «موسم الهجرة الى الشمال» بتلذذ لكننا قطعاً لم نكن نستوعب هذا الذي يتحدث بحرارة شديدة عن «دفء الحياة في العشيرة» ويصف علاقة عابرة من علاقات مصطفى سعيد قائلا : «رأتني فرأت شفقاً داكناً كفجر كاذب وكانت عكسي تحن الى مناخات استوائية وشموس قاسية وآفاق ارجوانية . . . وأنا صحراء الظمأ ، متاهات الرغائب الجنونية كنت في عينيها رمزاً لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع» .

نعم لم نكن نستوعب جيداً دلالات عبارات على غرار «ما أروع لونك الأسود لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة» .

فقد خلنا الطيب صالح يعالج مشكلة لونية ،لكن الرجل كان بعيداً كل

البعد أن يقع أسير هذه الخرافة ، لقد قال لي مرة «اللون لا يمثل بالنسبة لي اية مشكلة وليس لدي احساس بالنقص في هذا الموضوع . نحن في السودان بسبب العزلة النسبية التي عشناها كنا نظن أننا أكثر العرب وسامة وأكثرهم عروبة» . ويستطرد «لقد استعملت اللون في موسم الهجرة لأربط شخصية بطل الرواية بجذوره الافريقية . ويجب أن نلاحظ أن مصطفى سعيد إستغل اللون لصالحه ولم يكن يمثل بالنسبة له مركب نقص ، بل كان ميزة استغلها في علاقاته الغرامية ، وقد ربط شخصيته من الزاوية الأدبية بشخصية عطيل» .

قرأنا الطيب صالح وبهرتنا اللغة ، والصور الحية المبثوثة في رواياته . كنا نقف كثيراً عند بعض المقاطع ، نعيد قراءتها مرات ومرات . لنقرأ معا : «ثلاثون عاما . كان شجر الصفصاف يبيضّ ويخضرّ ويصفر في الحدائق . وطير العندليب يغني للربيع كل عام . ثلاثون عاما وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ . والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر . مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهاي ماركت . كانت ايدث ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس أوف ويلز يفيض بالشباب والألق . البحر في مده وجزره في بورتمث وبرايتون . ومنطقة البحيرات تزدهي عاماً بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ، في تحول سرابي مع تحول الفصول . ثلاثون عاما وأنا جزء من كل هذا أعيش فيه ، ولا أحس جماله الحقيقي ولا يعنيني منه الا ما يملأ فراشي كل ليلة» .

****

هذا الكتاب الذي يحكي السيرة الذاتية لهذا الكاتب الفذ ، يبدأ بتركيز على البيئة المحلية ، القرية التي جاء منها الطيب صالح . انني أحس ، وكما يقول الطيب صالح نفسه ، انه في جميع كتاباته حاول أن يقيم جسرا بينه وبين عالم جميل عاشه في طفولته وفي صباه واغترب عنه دون سبب واضح ، خاصة أنه كان ملتحماً التحاماً شديداً مع بيئته المحلية ، وافتقد هذه البيئة وهذا العالم حين طوحت به الظروف من منطقة الركابية والبديرية الفاصلة بين ديار الشايقية والدناقلة ، ومن قرى منطقة مروي «قشابي ، العفاض ، والدبة»[1] الى لندن :أي من الجنوب الى الشمال . . . حيث جين مورس ، وشيلا غرينود ، وازبيلا سيمور ، وآن همند .

الى لندن التي ألهبت خياله ليكتب ، نخلة على الجدول ، ودومة ودحامد ، وعرس الزين ، وموسم الهجرة الى الشمال ، ومريود ، وضوالبيت .

انني اعتقد جازماً أن هناك طفلاً قابعاً ونائماً في اعماق كل كاتب . لذلك يقول الطيب صالح «الإبداع نفسه ربما فيه البحث عن الطفولة الضائعة» ويستطرد «حين يكبر الإنسان ويدخل في تعقيدات الحياة يبدو له عالم الطفولة وكأنه كان فردوساً جميلاً» .

وأخال الطيب صالح قد كتب ما كتب من أعمال رائعة ، تحت ضغط الحنين الى هذا الفردوس الضائع .

إن الذي يعرف هذه المنطقة أو عاش فيها ، يعرف جيداً ، أن شخصيات مثل ، الزين ، ومحجوب ، وود البشير ، وود الريس ، وبنت مجذوب ، توجد تماماً في الواقع . بل تكاد تكون لها نفس السمات التي شخصها الطيب صالح في أعماله الروائية . والمنطقة التي جاء منها هذا الكاتب العملاق ، منطقة تعرف القبلية ولكن دون تعصب ، مجتمعها مجتمع متساكن ، مفتوح ، يعيش ما يعرف بنظام العائلة الممتدة ، لذلك فإن مفهوم العائلة لا ينحصر في الأب والأم والإخوة ، بل يشمل جميع الأقارب لتتسع الدائرة أحيانا فتضم آلاف الأفراد يعيشون إحساساً داخلياً جميلاً بأنهم ينتمون الى أسرة واحدة .

(1) تقع هذه المنطقة في شمال السودان ، وقبائل هذه المنطقة العربية هي الشايقية والبديرية والركابية ، والى شمالهم توجد قبائل الدناقلة والمحس والحلفاويين ، على الحدود السودانية المصرية ، وهي قبائل نوبية اختلطت بدماء عربية .

هذه المنطقة التي تقع عند منحنى النيل ، والممتدة من ديار الشايقية الى منطقة الدناقلة تعتبر مستودعا للحضارة السودانية ، لأنها تشكل المزيج العرقي الذي يتكون منها ما نسميه شمال السودان بالمعنى الواسع .

تاريخياً ورثت هذه المنطقة الحضارة المصرية القديمة ، ولا تزال أهرامات «جبل البركل» شاهداً على ذلك ، وحين تلاشت تلك الحضارة في مصر ، حافظت الممالك التي قامت في السودان على الحضارة المصرية القديمة ، ثم نشأت ممالك مسيحية ، وظلت حتى دخول العرب والإسلام . والثابت أن هذه القبائل جاءت من الجزيرة العربية والعراق ، عبر البحر الأحمر ومصر ، واختلطت بالسكان المحليين والشيء الذي يميز هذه المنطقة أنها ملتقى لثلاث قبائل عربية كبيرة ، هي الشايقية والبديرية والركابية ، كما أن لها صلات واتصالات مع أكبر القبائل العربية في غرب السودان وأعني قبيلة الكبابيش . وهي منطقة تتسم بالتسامح الشديد لذلك ظلت تستقبل هجرات موسمية ، للبدو القادمين من الجنوب ، والذين يطلق عليهم في المنطقة اسم «العرب» ، وهم في الغالب الأعم من قبائل الكبابيش والهواوير ، وكذلك استقبلت الغجر الذين يطلق عليهم «الحلب» .

حين يحكي الطيب صالح عن طفولته ، يتذكر جيداً هؤلاء العرب والحلب ، فهو يقول عن «العرب» أو البدو الذين كانوا يزورون المنطقة «هؤلاء العرب كانوا يتسمون بالغرابة ، يجيئون الى المنطقة مع آلاف الإبل خلال الصيف ، وبعد ذلك يختفون وكأنهم يجيئون من اللامكان ويذهبون الى اللامكان . كانوا يدخلون على قرانا حيوية شديدة ، لأن أعراسهم وأسلوبهم في الفرح والرقص يختلف عن أسلوب أهل المنطقة . فهم يرقصون رقصة نطلق عليها إسم «الجابودي» رقصة يشارك فيها الرجال والنساء ، يقف الرجال على شكل نصف دائرة ، ثم يحمحمون بأصوات مكتومة . . . ثم يدخل النساء ويرقصن رقصاً بديعاً ومثيراً . أما الحلب أي الغجر ، فكانوا أناساً متفتحين الى حد الاباحية أحياناً ،لا يتحرجون ، يجيئون الى قرى منطقة مروي ليبيعوا الناس العطور والملابس والأواني كما أن بعضهم كان يعمل في مجال الحدادة ، يصلحون أدوات الزراعة . كانوا يقيمون في أطراف القرى ، تأتي الأسرة بكامل أفرادها ، ينصبون خيمة من الصوف او الوبر ، ويتكلمون لهجة أهل

البلد ، وكان الأطفال يرافقونهم حين يجيء وقت رحيلهم . وهم كذلك كانوا بالنسبة لأهل المنطقة يجيئون من لا مكان ويذهبون الى اللامكان» .

ورغم ضيق الرقعة الزراعية والجبال التي تحد أطراف القرى ، في منطقة مروي ، فإن أهل هذه المنطقة يتمتعون بخيال خصب يتجلى في ميلهم الطبيعي نحو الفرح ، لذلك يمكن تقسيمهم الى ثلاث فئات ، مجموعة تقول الشعر ، ومجموعة تغني هذا الشعر احترافاً أو هواية ، ومجموعة ثالثة تتذوق الشعر وتنتشي بالغناء .

الناس تتكلم على سجيتها ، لكن حديثهم يتميز بحس شاعري ، حتى مزاحهم كان يتم أحياناً بشاعرية . ورغم أن بعض الناس يعتقدون أن العامية المستعملة في المنطقة قد ازدحمت بكلمات غير فصيحة ، فإن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق ، وأعتقد أن سكانها من أفصح أهل السودان . وأتذكر أن الطيب صالح نبهني مرة الى أن كلمة «غلت» بتاء مفتوحة ، التي نستعملها في المنطقة عوض كلمة خطأ ، هي كلمة فصيحة تماماً مشيراً الى أنه وجد المتنبي يستعمل الكلمة نفسها أي «غلت» بمعنى غلط أو خطأ .

الناس تزرع القمح والذرة والنخيل والخضروات ، أما الفواكه فتزرع في الجناين «الجنان» . ونظرا لضيق الأرض الزراعية فإنهم كانوا يحرصون أن تجود طوال السنة . كما اعتادوا أن يعملوا جماعة في الحقول ، وحتى سن متأخرة ، لذلك فإن متوسط عمر المزارعين في هذه المنطقة فوق الستين . كما أنهم كانوا يتولون بأنفسهم نسج ملابسهم ، ويصنعون أدواتهم المنزلية . وجاءت سنوات لم يكن فيها الناس يحتاجون في أمورهم الحياتية الى شيء من خارج المنطقة ، سوى الشاي والسكر .

اعتاد أهل المنطقة أن يمارسوا شعائرهم الدينية دون غلو ، وهم في هذا الجانب أقرب إلى المتصوفة ، لذلك فإن الذين كانوا يمدحون الرسول أي "المداحين" كما يطلق عليهم ، لهم حظوة داخل هذا المجتمع المتساكن والمندمج . ولعلنا نجد ملامح هذه الصوفية ، ولا أقول النزعة الدينية ،كثيراً في كتابات الطيب صالح .

كان الصبية يعملون مع أهاليهم في الحقول ، يزرعون ويحصدون ويرعون الماشية . أما الدراسة فقد كانت تقتصر على الخلوة ، «المسيد أو الكتاب» .

يحفظ الأطفال فيها القرآن الكريم ، ويتعلمون مبادئ القراءة والكتابة ، ومن

كان محظوظاً فإنه يذهب الى المدرسة الابتدائية ، إذ أن أول مدرسة ثانوية في المنطقة لم تشيد إلا مع مطلع الستينات .

واتصف أهل المنطقة بالنبوغ ، لذلك تجدهم يعتزون كثيرا بقولة انجليزي يدعى مستر جاكسون ، وقد عمل مفتشاً في مركز مروي (أي حاكماً بلغة هذا العصر) قال فيها «من الأفضل أن لا ندخل المدارس الى هذه المنطقة لأن هؤلاء الناس ونظرا لذكائهم الشديد سينقلبون علينا إذا تعلموا» .

ورغم أن الطيب صالح سينتقل من المنطقة الى مدينة بورتسودان ليتابع دراسته في المرحلة الوسطى (الإعدادية) ، فإنه كان يحرص على العودة اليها في العطلات ، اعتقاداً منه أن هناك شيئاً جميلاً شكل وجدانه سيضيع .

إن هذا الإحساس سيظل ملازمًا له ،حتى بعد أن اغترب بالمعنى الحقيقي للغربة ، أي بعد أن سافر الى لندن في مطلع الخمسينات . وهنا اقتبس بعض كلماته «حين جئت الى لندن أحسست بزمهرير داخلي ، فبعد أن كنت اعيش حياة العشيرة والعائلة الممتدة ، والناس الذين تعرفهم جميعاً ويعرفونك وبعد الدور الفسيحة والحيشان ، والسماء الصافية ، والنجوم ، والأهل والاعمام والاخوال والخالات والعمات والجدات . جئت الى لندن لأعيش في غرفة صغيرة داخل أربعة جدران ، في وسط مجتمع بدون عواطف ، وفي تلك الغرفة مدفأة غاز صغيرة وليس أمامك سوى أن تدخل وسط ركام من الأغطية والبطاطين لتحس بالدفء ، ثم إن جيرانك لا يعرفونك ولا يهمهم أمرك ، جائز جداً حين تخرج في الصباح تكتفي بعبارة «صباح الخير» وحتى هذه قد لا تتلقى رداً عليها أحياناً . . . كان إحساسي عارماً بأنني تركت خلفي أشياء جميلة . . . وأعتقد أن المحرك الأساسي لما أكتب هو خروجي من السودان وبالتالي من منطقتي . وصورة المنطقة هي تلك التي تركتها عليها في الخمسينات . الصورة التي وصفتها« في عرس الزين » ومازلت أحلم بها ، ورغم أن المنطقة تغيرت فإن تلك الصورة تؤرقني ، ويؤرقني باستمرار أنني لست موجوداً هناك حتى أجلس وسط الناس مرتديا الجلابية متأملا السماء الصافية التي ليس لها مثيل . وحين بدأت الكتابة وجدت ان هناك عنصراً طاغياً على كتاباتي وهو نوستالجيا NOSTALGIA أي الحنين للوطن . الحنين الى عالم أحس بأنه ينقرض

رغم أنني أسعى أن لا أنجرف مع هذا التيار حتى لا يتحول ما أكتب الى وقوف على الاطلال ولو أنني أحس إحســاساً قوياً أن هذا العـــالم كان يجب المحافظة عليه بأي ثمن . . . وأرجو أن يكون شئ قد بقي منه ، ومما لا شك فيه أن هذه المنطقة هي التي خلقت عالمي الروائي» .

كانت القرية هي العالم الذي أحبه الطيب صالح دون تحفظ ، وربما أحس فيه بسعادة كاملة . سعادة الطفل الذي يذهب للخلوة ليشخبط على الرمل ويحفظ القرآن من ألواح خشبية . الطفل الذي يعمل في الساقية ، ويطرب لصوتها وهي تئن ، تنقل المياه من الجدول الى الحقل عبر القواديس ، ذلك الإناء الفخاري المصنوع من صلصال الأرض المعطاءة . وينتشي بخوار البقرة وهي تجر الساقية ، الطفل الذي يقتلع البرسيم للغنم ، ويرعى صغارها ، يصطاد القمري ، وتملأ جوانحه الفرحة حين تصل البابور الى قريته ، وقد كانت وسيلة المواصلات الوحيدة التي تربط بين قرى المنطقة الموجودة على ضفتي النيل . الطفل الذي يشرب حليب البقر او النعاج ، طازجاً ، ويلبس الملابس الجديدة في الأعياد ، ويقف مع أقرانه يلفهم الغبار وهم يستمعون الى رجال العرب (البدو) في حمحمتهم ، حين يقيمون حفلاً . الطفل الذي يكتب الخطابات والمراسيل ، لأهله وعشيرته . الطفل الذي تغمره السعادة حين يأتي النيل محملاً بالطمي من هضبة الحبشة أيام الفيضان ، ولا يتردد في أن ينحني على الجدول ليشرب من ذلك الماء العكر . ويدس تمرات في جيبه يداري بها الجوع حين يعمل مع الكبار في الحقول ، يعزق الأرض ويصلح التربة . ويستنشق هواءً عليلاً ، هواء البرسيم والقمح والذرة في الحقول .

الطفل الذي شارك أقرانه تلقيح النخل ، ولاشك أنه شاركهم في جمع «تمر الهبوب» حين تهب الرياح وتعبث بسبيط النخل قبل موسم الحصاد . الطفل الذي حصد بمنجله هذا السبيط .

****

ولا يعني هذا أن الحياة في المنطقة كانت كلها رخاء ، لكنها إتسمت كذلك ببعض الشظف ، بيد أن الأهالي استطاعوا التكيف مع هذه البيئة في رخائها وشظفها ، وإذا ضاق بهم الحال ، هاجروا شمالاً نحو مصر أو جنوبا نحو الخرطوم . بيد أن صلتهم مع المنطقة لا تنقطع . وعاشت في مصر أسر بأكملها من ديار الشايقية ولعقود في ضواحي القاهرة ، في "الجبل الأصفر" و"الخانكة" و"عين شمس" . ولا تزال منهم هناك بقايا .

ومن سمات التعايش مع البيئة المحلية ، أن السكان كانوا يحتفون احتفاءاً مميزاً بحيواناتهم ، فهم يعرفون سلالاتها ، وقد تجد طفلاً يشرب لبن بقرة ما من نفس السلالة التي شرب جده لبنها .

وحتى الحمير وقد كانت وسيلة المواصلات بين القرى والمداشر يحفظون سلالتها . لذلك سنجد أن الطيب صالح قد خصص فصلا كاملا في رواية ضو البيت للحمير . وكان الناس يميزون الحمير من نهيقها .

أما بالنسبة للنخيل والذي دخلت زراعته المنطقة قبل قرون ، فانهم يتوارثون اسرار سلالته وأخبارها .

إن التكيف مع البيئة لا ينحصر في هذا الجانب ، بل إن الآذان كانت تميز تماماً بين أصوات الرياح في هبوبها وتقلباتها وفي دلالاتها المناخية . تلك هي البيئة التي عاشها الطيب صالح ، وظلت تفاصيلها منغرسة في وجدانه ، وهذه البيئة التي أنتمي أنا أيضا إليها ، هي التي كانت تضغط علي وعلى وعيي ووجداني ، لاسير مع الطيب صالح في دروب مدن متباعدة ، حتى تكتمل فصول هذا الكتاب .

****

الآن سادتي ، احكي لكم كيف جاءت فكرة هذا الكتاب . . . وكيف إكتمل .

في أكتوبر (تشرين الأول) عام 1983 أجريت حواراً مطولا مع الطيب صالح . كان حواراً حميمياً ، تحدث فيه الطيب صالح كما لم يتحدث من قبل ، وعندئذ إختمرت الفكرة في ذهني :

كتاب حول السيرة الذاتية للطيب صالح . . . لماذا لا؟

ولأنني أعرف ان الطيب صالح يتحاشى الاضواء ، ويرفض الحديث عن نفسه فقد كانت محاولة إقناعه صعبة وعسيرة ، دونها بيض الانوق .

واذكر حين طلبت منه في ذلك الحوار أن يعرف نفسه ، هل هو «عبقري الرواية العربية كما كتب» اجاب بتواضعه الجم «أولا أنا لا أحس بأنني عبقري ، أو شيء من هذا القبيل ، وهذا ليس تواضعاً مزيفاً لكن ما كتبته على قلته عبرت فيه عن نفسي بكيفية خاصة . ثم انه ليس من طموحي ككاتب أن اصبح زعيم مدرسة ادبية . او خليفة فلان من الناس ، لان الكتابة بطبيعتها تقتضي تعدد الاصوات» .

وظلت فكرة كتابة السيرة الذاتية للطيب صالح تلح على الخاطر ، وفي كل مرة التقيه كنت اطرح الفكرة عليه ، مغلفة تارة . . . ومباشرة تارة أخرى . وفي كل مرة كان يتشبث أكثر برأيه :

«يا شقي الحال يا اخي شوف واحد غيري والله لا أعرف من الذي سلطك علي !! » .

لكنني لم أيأس .

وتمضي سنون . ويستمر الطيب صالح في عزوفه ، بل وفي عدم قبوله للفكرة واوصل معه إلحاحاً ، لاقناعه بتدوين شيء عن حياته .

وفي شتاء عام 1990 ، التقيت الطيب صالح في تونس وقد تصادف وجودنا هناك . وجدته رائق المزاج . . .هذه المرة لم اطرح الفكرة ، بل قلت له ما رأيك ان ندردش قليلا .

وقد كان .

فتحت آلة التسجيل وبدأت .

و التقينا في لندن ، وسعيت لاكمال ما بدأته في تونس ، لكن لم تكن لديه شهية للحديث .

ثم التقينا مجددا في اصيلة (المغرب) ، واستطعت ان انتزع منه بعض ساعات . ثم سافرنا سوياً الى الدارالبيضاء ، وهناك أكملنا ما بدأناه في اصيلة .

والتقينا مرة أخرى في لندن ، لكنه أصر على أن ما قاله فيه الكفاية . وعدنا لنلتقي مجددا في المغرب ، وظللت ألح الحاحاً مضنياً . الى ان أصبح ما كتبته في حدود المعقول .

وسلمته النسخة الخام لهذا الكتاب لمراجعة التواريخ والأسماء . . . لكنه اختفى بين عواصم العالم العربي ، حيث كان مشغولاً مع برنامج لمحو الأمية اعدته اليونسكو .

فاضطررت للسفر الى لندن ، وبعد جهد جهيد حصلت منه على النسخة الخام بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات ، وصحح بعض الوقائع . وعدت للرباط وأفرغت ما في جعبتي على الورق . وظل الكتاب حبيس الادراج . فقد شغلتني عنه ضغوط وتفاصيل الحياة اليومية .

وكنت في كل مرة أتمنى أن أجد متسعاً من الوقت لأسير على الدرب مع الطيب صالح ، لاكمل هذا العمل .

ولم يتسن لي ذلك إلا في فبراير 1995 .

فكان هذا الكتاب الذي اخترنا عنوانه سوياً .

انه احاديث وحوارات مع الطيب صالح قالها لي ونحن نتمشى في دروب عواصم ومدن وفي فصول بينها الشتاء القارس ، والصيف اللاهب . . . . وفي ظروف متباينة . . كنا نتحدث في الصباح الباكر احياناً . . . وفي الهزيع الاخير من الليل ، الى ان اكتمل الكتاب . وهآنذا أجد نفسي سعيداً منتشيا بهذا العمل ، لا لشيء الا لان الطيب صالح قال لي ما لم يقله من قبل .

إنها محطات في حياة مبدع يفيض ألقاً وإنسانية . . .

الفصل الاول

القرية : النيل والنخيل ودفء العشيرة !

القريــة

في صيف عام 1929 سيرزق محمد صالح أحمد وزوجته عائشة أحمد زكريا رحـمـهـمـا الله بمولودهمـا الثـالث ليختـارا له اسم الطيب . كان ذلك في قرية الدبة (منطقـة مـروي) في شـمـال السـودان . كـان أبواه قد رزقا بمولودين ذكـرين قـبله ، لكنهما توفيا وهما في سن الرضاع ، لذلك أصرت والدته أن تسميه (الطيب) تفاؤلا بالصحة وطول العمر .

كـان للمكان الذي انجب الكاتب أثر في تشكيل الملامح الاولى لصبـاه ، وأستمد منه زاداً لاعماله .

في هذه المنطقة تعيش ثلاث قبائل عربية متمازجة ومتداخلة ، وهي الركابية البديرية والشايقية ، والاخيرة هي التي طبعت المنطقة بطابعها .

اهل هذه القرى مزارعون ، يزرعون شريطا زراعياً ضيقاً يمتد على ضفتي النيل . مكتفون ذاتياً ينتجون كل ما يحتاجونه ، يعيشون في توادد وتراحم . حياتهم هينة وسهلة ، وخيالهم خصب ، ويتمتعون بذكاء فطري شديد الوضوح . ولم تعرف هذه المنطقة التعليم بمعناه الحديث الا في سنوات متأخرة ، لكنها عرفت بالمقابل تعليماً دينياً من خلال الخلاوي ، والمساجد ، وقد خلق هذا النوع من التعليم ثراء لغوياً ملحوظاً ، كما انه رسخ روح التسامح بين الناس . واشتهر عن الركابية والبديرية ، انهم أهل علم وحملة قرآن ، خاصة الركابية ، بينما كان الشايقية أهل فروسية ، فحدث تكامل بين القبائل الثلاث ، وامتزج بعضها بالبعض .

****

اعتاد اهل المنطقة على زراعة القمح والشعير والذرة والبرسيم والنخيل . وفي منازلهم أقاموا زرائب للضأن والبقر أحياناً .

النيل عندهم هو الحياة . رغم أنه يفيض في بعض سنواته فيجرف مزارعهم على ضيق رقعتها ، ويرفد ضفتيه بالطمى ، فينتظره المزارعون حتى ينحسر ، لينثروا البذور على ضفافه الخصبة .

كانت الاراضي تسقى بالسواقي ، وهي آلة لرفع المياه تجرها الثيران . وأحياناً كانوا يستعملون الشادوف لنقل المياه من الآبار التي تحفر قرب ضفة النيل ، الى الحقول .

وجاءت سنوات اختفت فيها السواقي وحلت محلها ماكينات المياه ، التي تعمل بالوقود . وغاب عن تلك القرى أنين السواقي وحلت محلها طقطقة الماكينات . واقام اهل المنطقة جمعيات تعاونية لزراعة الذرة في الصيف والقمح في الشتاء .

في حين كانت أشجار النخيل تجود عليهم بانتاجها في اواخر الصيف . اما البرسيم الذي يستعملونه علفا لماشيتهم فهو يزرع على مدار السنة .

وفي سنوات الخمسينات والستينات دخلت المنطقة زراعة الفواكه . المانجو والبرتقال والقريب فروت والموز . كما زرعوا في الجزر التي يتركها النيل عند انحساره الخضروات وبعض الفواكه .

يبدأ المزارعون في منطقة مروي يومهم في الصباح الباكر واحياناً في الفجر حيث ينزلون الى الحقول مع ابنائهم في حين تبقى النسوة حتى ساعة الضحى لاعداد الافطار في البيوت ، وبعدها يحملن ما تم طهيه الى ازواجهن وابنائهن في الحقول . ويظل الرجال والصبية يعملون في عزق الارض وسقي الحقول ، وتشذيبها حتى ساعة الغداء ، الذي عادة ما يتكون من وجبة متواضعة ، واحيانا لا يتعدى حفنة تمر وقليلاً من السمن او اللبن . وبعد الاكل ينحني معظمهم على جداول المياه ليشربوا ماءً محملاً بالطمي .

عند مغيب الشمس يعود الجميع الى منازلهم ، التي بنيت بالطين وسقفت بجريد النخل ليتناولوا وجبة العشاء . ثم يجلسون في حلقات صغيرة فوق الرمال الرطبة يتسامرون وحين يحلو السمر ، يتمدد البعض فوق تلك الرمال ، ويبدأ آخرون في الغناء أو في ترديد شعر منظوم بلهجة اهل المنطقة .

والواضح ان حياة الدفء في العشيرة ، عوضت هؤلاء الناس عن أشياء كثيرة . . . لذلك تجد ان الفرح يلازمهم في حقولهم ومنازلهم . . . ولعل ذلك يفسر أيضاً إقبالهم على الحياة رغم تدينهم ، الى حد ان جلسات الشرب لم يكن ينظر اليها باستهجان .

ولعبت الاصوات دورًا اساسيًا في الثقافة الشعبية للمنطقة . في الفجر يسمعون صياح الديكة وشقشقة العصافير ، وفي الحقول يصيخون السمع للريح وهي تعبث بجريد النخل المتهدل ، وخرير المياه في الجداول ، ونهيق الحمير . . . وصوت القمري والحمام .

لقد عاش هؤلاء الناس حياة بسيطة دون تكلف وكانوا قانعين بتلك الحياة ، ونظرا لبساطة مجتمعهم ، فان الله إذا يسر على احدهم كان يداري ذلك . . .

خاصة انه مجتمع بدون اسرار . الجار يعرف ماذا أكل جاره . . . وتفاصيل حاله واحواله . وهم بطبعهم يميلون الى حياة بدون أسرار . . . حياة هينة .

وقد دخلت المدارس متأخرة الى هذه المنطقة . وكان الاهالي يعزفون عن ارسال ابنائهم الى المدرسة ، وفي اعتقادهم أنها قد تفسد اخلاقهم . لكن الطيب صالح كان من فئة محظوظة فقد استطاع ان يدخل المدرسة . . . ويتعلم ، الى أن طوحت به الظروف الى لندن في وقت مبكر . فكان من أوائل السودانيين المتعلمين الذين هاجروا الى الغرب .

ورغم ضيق الاراضي الزراعية ، وقلة مردودها ، فان اهالي المنطقة كانوا قانعين بما لديهم . ولكن حين إشتد عليهم الحال خاصة خلال سنوات الاربعينات . اضطر كثيرون من ابناء المنطقة الى الهجرة شمالا وجنوباً . شمالا نحو مصر وجنوبا نحو الخرطوم وبعضهم هاجر الى (الجزيرة) للعمل في المشروع الزراعي الذي يعد من اكبر المشاريع الزراعية في السودان ، واستقروا هناك .

بيد ان الذين هاجروا ظل ارتباطهم بالمنطقة متصلاً . يجيئون في العطلات والاعياد ، للتواصل مع اهلهم .

وقد شكلت حكايات وقصص هؤلاء الذين اضطروا للهجرة خاصة الى الشمال ، تراثاً غنياً في الذاكرة الشعبية لابناء المنطقة . لذلك وجدت انه من الملائم ان اثبت هنا رسالة ارسلتها أم الى إبنها الذي كان يعمل في مصر في سلاح الحدود ، تشرح له فيها حالتها وتطلب منه ان يسعفها بشيء من المال ، يعينها على شظف العيش .

ورغم ان تلك الام نظمت رسالتها في قصيدة باللهجة العامية لأهل المنطقة ، لكنني اقول انه كلام قريب من الفصحى . وهي قصيدة ترسم في كل الاحوال صورة لما كانت عليه حالة قرى منطقة مروي في تلك الفترة .

تقول الأم :

السلام يغريك انت يا لزين

السلام ليك وللمعاك في الاوضة جالسين

السلام يغري الطرابيش والقلاشين
السلام من عين شمس لا حد فلسطين
****

انا ما بوصفك يا صباحي بخاف من العين
انت من عين الحسود وادعاك جبرين
انت بالعافي التخصك في المصارين
تبقالك هدم ياسيدي سروال ونعلين
****

انت يا سيد البسوق ارقوق موازين
انت يا سيد الجزيرة تكاكي وزين
انت يا سيد الحصص صمد النمرتين
انت يا سيد الشتيل التكه العراجين
انت ماك عارف قليبن لي مجينين
ما بترسل لي جوابا فيه سطرين
وما بتقول لي نعيم صباح امو اشتغل وين
****

وجواب السلامة وقت يجيني اطولّي شبرين
وانبسط لي انبساطة فايتي على القوانين
والله من خلاني اطير واحصلو الحين
والقاه عند القهوة قبل الرسمي جالس في الدرابزين
وانسرّ بيكم يالحبّيبين .
****

انا منطبقات علي ثلاثة واثنين
وختّي ربع جنيه وبعضا ثلاثين
وقالوا ما بنقبل دايرنو في الحين
وانت في ثلاثة سنة ما بدوك سبوعين

طلبتك بالله من حق الله ترسل لي جنيهين

****

ان سألتَ منَ المَقد ما جابلو مُدين
والعشريف مبوصَ وما مرق هين
اصلو لا تمرا مرق ولانا سايقين
الليلة لا تقول الجواب دا جاييني من وين
الكلام نضم ام نعيم مو دايرى تلقين
والكتب ورّاق حسن اسطى في الطاحونة تاجر في الدكاكين
انت ان قعدت مع السلامة وان جيتنا يا الزين
وانت أمّا جيت بننتظر الصغيرين

****

انت شكرك عندي راقد بالجرانين
وكت دايرى ازيد الا الجواب ياخيري اتملأ بالصفحتين .

****

ان أثر القرية لا يوصف على الطيب صالح لذلك سنجده ، يقول : «كنت اطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ، اراها بعين خيالي اينما التفت ، اتذكرها احيانا في الصيف في لندن ، اثر هطلة مطر ، وكأنني أشم رائحة تلك القرية البعيدة . »

لقد انصهر الطيب صالح مندمجاً مع بيئته المحلية دون ان يسائل نفسه عن سبب هذا الاندماج او الانصهار .

والآن لنقرأ ماذا يقول الطيب صالح عن طفولته . . . وعن مجتمع القرية ومراتع الصبا .

****

« ولدت في المنطقة الفاصلة بين ديار الشايقية والدناقلة . اهلي من قبيلتي البديرية والركابية ، وربما تكون انسابهم قد إختلطت بقبائل أخرى ، لكن معظمهم

من الركابية وديارنا توجد في قشابي والعفاض والدبة ، وهي التي توجد فيها كرمكول . واذكر ان احد شعراء الشايقية من منطقة نوري ، وكان من «الطيّانة» الذين يجيئون الى منطقتنا لبناء بيوت الطين ، وهم من البنائين المهرة ، يبدو أن الشوق قد غالبه الى بلدته ، لانه ترك أسرته خلفه ، فانشد أبياتاً تقول :

كرمكول ما جيتك براي
قسمي والعيش جراني جاي
كرمكول صيدك مالو فار
يجري في الأورى بلاخبار
الصغار غالبات الكبار

كانت الدبة التي ولدت فيها من المراكز الرئيسية للمنطقة ، وقد أقام فيها الانجليز الذين حكموا السودان في تلك الفترة ، مركزاً ادارياً . . . ، وفي محطة الدبة ، شيد الانجليز رصيفاً من الحجر على غرار ما فعلوا في مروي حاضرة المنطقة . وقد قال احد شعراء المنطقة :

سلام مروي الرصيفه حجر
سلام يا دبّة العسكَر

وغرس الانجليز شجر الجميز الضخم في الدبة ، وكانت دور الحكومة التي يسكنونها ومساعدوهم من السودانيين ، تطلى على تواضعها بالجير الابيض لتميزها عن باقي دور البلدة .

كان وصول البابور (الباخرة النهرية) الى الدبة ، يعد حدثًا .

فقد كانت البابور حين تقترب من رصيف الميناء النهري الصغير ، تطلق صفارات يسمعها كل من في البلدة ، ويجيء الناس على حميرهم لاستقبال البابور ونقل القادمين ، او حمل البضائع المرسلة من كريمة وهي الحاضرة التي كان ينتهي عندها خط السكك الحديد القادم من الخرطوم .

لقد اثر في هذا المشهد كثيراً ، وظل راسخاً في اعماق الذاكرة ، منذ ايام الطفولة . كان مشهدا مهيباً بالنسبة لنا اطفال ذلك الزمان . وقد وصفته في روايتي «موسم الهجرة الى الشمال» و «ضوالبيت» .

الدبة حيث ولدت وترعرعت ، كانت بلد علم وعلماء منذ قديم الزمان . فقد وجدت في احد المراجع التي كتبت عن السلطنة الزرقاء ومملكة الفونج (اوائل القرن السادس عشر الميلادي) وكانت من أهم الدول التي سادت السودان ، كتاباً كتبه انجليزي يدعى مستر كروفرد ، يتحدث فيه عن أحد الرحالة الايطاليين الذي زار الدبة ايام السلطنة الزرقاء ، وقال انه وجدها «حَرم» ، اي محرمة على موظفي الدولة ، فاذا قتل احدهم شخصاً وجاء الى الدبة ليحتمي بها ، فان الحكومة لا تستطيع ملاحقته .

نشأت في هذه المنطقة المفعمة بتاريخها ، والزاخرة بعاداتها وتقاليدها المتسامحة ، وداخل مجتمع متساكن ومندمج ، في اواخر الثلاثينات والاربعينات . كانت قرانا مكتفية بذاتها مثل جميع قرى شمال السودان ، الناس تأكل من الأرض التي تزرعها بالقمح والذرة والدخن والذرة الشامي والخضروات .

وحتى خلال السنوات الصعبة ، واعني سنوات الحرب العالمية الثانية ، ظلت المنطقة تعيش في رخاء وطمأنينة ، والشيء الوحيد الذي كان يفتقده السكان هو السكر والشاي ، لذلك بدأ الناس يضعون في الشاي بعض تمرات ليصبح مذاقه حلواً ، وكان يسمونه «الجنْبقلي» ولا اعرف من اين جاءت هذه الكلمة . . . واصبحت هناك اغان تغني لهذا الجنبقلي .

واتذكر انه خلال تلك الفترة تم تداول مصطلح «البرشوت» وهو ما يعني السوق السوداء ، فكان يقال ان المادة الفلانية دخلت البرشوت اي دخلت الى السوق السوداء لكن هذه الفترة لم تكن صعبة ، لان جميع المواد الغذائية الاخرى كانت متوافرة ، وانقضت تلك الفترة دون مشاكل . . . اوربما كانت هناك مشاكل ولكن الناس تغلبوا عليها .

كان أهلنا يعملون في الحقل سنوات طويلة ، حتى بعد ان يتقدم بهم العمر ، حين بدأت أعي الحياة من حولي ، أدركت ان جدي كان قد تجاوز السبعين ولا يزال يعمل في الحقل .

كانت البلد مكتفية ايضا من المهن المرتبطة بحياة الناس ومعاشهم . فقد كان عندنا النساج الذي ينسج الثياب والحداد الذي يصنع ادوات الحدادة المرتبطة

بالزراعة . والبصير اي الطبيب الذي كان يعالج الكسور والرضوض ، وكان الناس لا يحتاجون من خارج المنطقة كما أسلفت ، سوى الشاي والسكر ، خاصة انهم كانوا يعتبرون الشاي مع الحليب ، من ضرورات الحياة .

بعض افراد ذلك المجتمع اتيح لهم ان يعملوا خارج المنطقة ، في مهن كانت تعد آنذاك من الاهمية بمكان ، مثل مساعد الحكيم ، وهو الممرض الذي اكتسب خبرة طويلة في المجال الطبي ، وبعضهم عملوا ككتبة (موظفين اداريين صغاراً) . . . ومهن أخرى من هذا القبيل . وكان هؤلاء يحرصون على تمضية عطلاتهم في البلد . فقد كان الريف والمدينة مرتبطين ببعضهما ولم ينفصلا مثل ما حدث لاحقاً .

كانت تلك البيئة تصنع ثقافتها بنفسها ، واتذكر عندما كان يجيء المداحون الى بلدتنا للتغني بقصائد في مدح الرسول يعتبرذلك حدثاً جليلاً ، ومناسبة كبيرة ينتظرها الناس بفارغ الصبر ، وفور وصولهم تذبح الذبائح ويتجمع الناس ليلاً في دائرة ، رجالاً ونساءً واطفالاً ، يستمعون بانتباه ونشوة لتلك القصائد .

ومن المداحين الذين اذكرهم محمد ولد سعيد ، وهو من اهلنا من قرية العفاض ، رجل كان له سمت ، كان وسيماً له صوت رخيم وجميل جداً ، ومن قصائده التي اتذكرها :

اللّيل العشوق نسّامه هبّاله
من وادي طّوى شال نومه مع باله
قال لك ود سعيد النفسو غالباله
بالرّيا والعجّب النيّة سايقاله
يجرى جري العُطاش مو داري باحواله .
وكونه غضنفراً لم تقو اشباله .

كان ولد سعيد رجلاً شبه أمي ، ورغم ذلك اذا تأملت شعره ستجده شعراً فصيحا ، او اقرب الى الفصحى .

وقد قدمت منطقتنا ، عددا من الفنانين ، منهم صديق احمد والشاعر عبدالله محمد احمد ومن شعراء الفصحى سيد احمد الحردلّو من تنقاسي[1] .

---

(1) تنقاسي قرية من قرى منطقة مروي في شمال السودان .

كانت الشاعرية تحيط بالانسان . في تلك الفترة لم نكن نعرف مصطلح شاعرية . . . الناس تتكلم على سجيتها ، لكن كلامهم كما ادركت من بعد ينضح بالحس الشاعري . وحتى اسلوب مزاحهم كان ممزوجاً بالحس الشاعري .

المؤكد ان المنطقة عرفت حالة تواصل ثقافي كما يقال حالياً ، وكان هذا التواصل يمتد حتى مناطق الدناقلة ، واذكر ان بعض المغنين كانوا يجيئون الينا من تلك المناطق . ومما ساعد على عملية التواصل ان بعض انواع التمور كانت تأتي من بلاد الدناقلة ، تجلب الشتول بالمراكب الى مناطقنا ، خاصة بعض الانواع مثل القنديلة . وحتى بعض انواع الحمير كانت تأتي من هناك ، و يطلق عليها اسم حمير بحري ، اي تلك التي جلبت عبر النهر . وفي بعض المناطق التي اختلط فيها الشايقية مع الدناقلة . أوجد هذا الخليط مناخاً ثقافياً متميزاً ، مثل (أرقى) التي يغلب فيها الشايقية على الدناقلة واشتهرت بأن اهلها يميلون كثيراً الى الغناء ، او (تنقسي) التي يغلب فيها الدناقلة . كما ان الاسواق التي تقام في القرى كانت مجالا رحبا للتواصل . . . وكانت هذه الاسواق تقام في الدبة وقشابي وكورتي .

ومن خلال الاسواق يتم تبادل الاخبار . فحين تسأل عن سلعة معينة كنت تجد جواباً فورياً ، فيقال لك ان هذه السلعة تجدها عند ود الجزولي في الدبة او عند فلان في كورتي . الناس كانت تتنقل باستمرار وهذا ما خلق ما يمكن تسميته بالثراء الثقافي .

لذلك اعتقد ان هذه المنطقة خاصة بعد ان تطورت المواصلات ودخلت البواخر والعربات ، استطاعت ان تكون نسيجًا مشتركًا ، يميزها عن جميع باقي انحاء السودان . وعزز ذلك المصاهرات والتزاوج . وحتى بالنسبة للفئة التي غلب عليها الطابع الزنجي والتي ربما أُسترقت في بعض الفترات ، اندمجوا في المجتمع واصبحوا جزءا من مكوناته . واعتقد ان منطقتنا استطاعت ان تقوم بعملية استيعاب عرقي جميل جداً . . . . وبهدوء .

كان الادب الشفوي متداولاً بين الناس واتذكر ان والدتي رحمها الله (توفيت عام 1988) لها ذاكرة قوية وشديدة الحفظ . تقف في حلقة المديح فتحفظ كل ما يقال ، واذا حضرت حفل زفاف تحفظ الاغاني التي يرددها المغنيون

والمغنيات . وقد سمعتها مراراً تروي المدائح والاغاني وشعر الدوبيت .

لقد دأب هؤلاء الناس على نظم قصائد تتناول حتى احداثاً عادية . واتذكر ان واحدة من نساء القرية ، تدعى بنت حنْحان ، ذهبت مرة الى تاجر من اهلنا يسمى عبدالصمد ، كان رحمه الله مشهورا بالبخل ، وسألته بنت حنحان شيئاً ، ربما قليل من المال او شيء من هذا القبيل . . . ويبدو انه امتنع ، فنظمت ابياتاً تهجوه ، وتمدح تاجراً آخر كان يدعى ود الجزولي ، عرف عنه الكرم ، فقالت :

وقتين الله صابني وقُمْ شحتٌ
ما امشي لي ود الجزولي الجدّو ختّا
شان يديني العطا المافيه نتّه
وشن بتدى أمراح الحاجة انت

فقد ارادت ان تقول ، انه مادامت ابتليت بالسؤال ، فلماذا لم تذهب الى ود الجزولي الذي كان سيجود عليه جوداً طيباً ، عكس عبدالصمد البخيل .

بالمناسبة كل هذا الكلام عربي فصيح ، وكلمة (نتّه) بالثاء في الفصحى معناها كثر الكلام واللّت .

وما اضفى على هذه المنطقة ثراء ثقافيًا ، ان عرب الكبابيش كانوا يزورونها بين الفينة والاخرى ، وهؤلاء عرب اقحاح ، كانوا يبحثون عن الكلأ والماء لإبلهم ، وشراء التمر والذرة . وفي غدوهم ورواحهم اختلطوا بالناس ، ونظرا لانهم من العرب الفصحاء فقد ادخلوا فصاحتهم في كلام الناس . واللغة العربية في هذه المنطقة فصيحة جداً ، وحين اتذكر بعض الكلمات التي كان اهلنا يستعملونها في لغة التخاطب اليومي ، واعود الى القاموس اجدها لغة فصيحة جدا .

في تلك الفترة كنت شديد الاعجاب بفئتين ، فئة (العرب) و(الحلب) .

كان العرب ، اي البدو يجيئون من اللامكان ويذهبون الى اللامكان ، كانوا أناساً يتسمون بالغرابة ، يجيئون إلى قرانا بآلاف الابل في فصل الصيف ، ثم يرحلون دون ان أدري وانا آنذاك طفل ، ولا اعرف الوجهة التي يقصدونها .

حين يصلون المنطقة ، كانوا يدخلون على قراها حيوية شديدة . لان افراحهم وطريقتهم في الغناء مختلفة ، عما اعتدنا عليه . كنا نطلق على رقصتهم اسم

«الجابودي» . يقف الرجال في حلقة الرقص ويحمحمون باصوات مكتومة (حمٌ . . حمٌ . . حمٌ) ، ثم تدخل بناتهن البدويات الى دائرة الرقص ويرقصن رقصاً بديعاً . . . كان المشهد بالنسبة لنا قمة في الاثارة . . . والنشوة .

وبعض هؤلاء استقروا في المنطقة ، وقد تعرضت لهذه الفئة في رواية (عرس الزين) . كان الذين استقروا يبيعون للاهالي الحليب واللبن ، وعندما يحين وقت جمع التمر ، يعملون في جمعه ، لقاء أجر أو جزء من الكمية التي تحصد ، وبعضهم تزاوج مع اهل المنطقة ، كما ان بعض شباب المنطقة تزوجوا من بناتهم ، وهن في غاية الجمال ، ورغم ذلك ظلوا منعزلين واعتقد ان ذلك مرده الى انهم لم يمتلكوا ارضا زراعية ، وهي عادة تكون مقياساً لمدى اصالة صاحبها وتجذره في المنطقة . . . ورغم ان الحواجز بدأت تزول لكن لا تزال هناك خطوط واضحة بين العرب (البدو) واهل البلد .

الفئة الثانية وكنا نطلق عليهم لفظة «الحلب» ، وهم في الواقع جزء من الغجر الذين كانوا يجوبون قرى شمال السودان ، وهؤلاء في سلوكهم كثير من التحرر حديثهم صريح جداً ويصل الى حد البذاءة . . . كانوا يجيئون لقرانا لاصلاح الادوات المنزلية ، ونساؤهن يحملن معهن العطور والتوابل والملابس لنساء القرى . ويقيمون في الاطراف ، وحين يرحلون كنا ونحن صغار نسير معهم مسافات طويلة .

هاتان الفئتان كانتا تشكلان اجواء ثقافية غريبة وجذابة .

في ظل هذه البيئة ، ذهبت الى الخلوة (الكتاب) ، وكان أهلي هم أصحابها ، ويعلم فيها القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة ، رجل من اهلنا يدعى علي ود حاج الماحي ، ويطلق عليه تمييزا الفكي (الفقيه) . وحاج الماحي هو أحد اجدادي . وقد كانت له قصة فريدة . فقد عمل مع اشقائه في الساقية (الحقل) وذلك قبل ان اولد بسنوات طويلة ، وفي إحدى السنوات جاء موسم الحج واخبر اخوته بانه يعتزم السفر الى مكة لاداء فريضة الحج . لكن اخوته اعترضوا على الفكرة على اساس ان الوقت كان وقت مَسْرة - اي موسم زراعة- وقالوا له «اذا اردت ان تذهب للحج ، عليك ان تنفض حقك في الساقية» اي تتنازل عن نصيبك في الارض الزراعية ، فاعلن تنازله وذهب الى الحج ، ليكسب لقب «حاج» ويفقد نصيبه في الارض .

مازلت اتذكر اول يوم ذهبت فيه الى خلوة الفكي علي ودحاج الماحي ، برفقة والدتي ، وكان عمري آنذاك خمس سنوات ، وسلمتني الى الفقيه ، ووجدت ان الخلوة تمور بالنشاط ، الاطفال يرتّلون القرآن الكريم واحيانا يتقافزون ويلعبون . طفل يقرأ من لوح خشبي وآخر يرتل ، وثالث يعيد ما حفظه ، ورابع يكتب على الرمل ، وجدت دنيا هايصة . كان هناك اطفال في سني وآخرون اكبر مني سنّاً وجميعهم من اهلي واقاربي .

حين جلست طلب الفكي (الفقيه) من احد اقاربي ان يعلمني مبادئ القراءة والكتابة ، فطلب مني بدوره ان اكتب حرف (ألف) على الرمال ، وبدأت اشخبط . كانت تلك أول لحظة في علاقتي بالقراءة والكتابة . قريبي هذا اصبح فيما بعد باشتمرجي (اي رئيسا للممرضين) وحتى الآن ، حين نلتقي يذكرني بتلك اللحظة الفاصلة في مسيرة حياتي .

استمررت اتابع قراءتي في الخلوة ، وحفظت عدة سور من القرآن الكريم حتى سورة ياسين .

ولم تكن تلك هي الخلوة الوحيدة في الدبة ، بل كانت هناك خلوة اخرى يعود تاريخها الى عشرات السنين ولعل هذا ما يفسر انه في وقت من الاوقات كان هناك ما يفوق مئتي شخص في الدبة يحفظون القرآن الكريم .

في هذه البيئة بدأت مسيرة حياتي ، ورغم أنني تعرجت في الزمان والمكان بعد ذلك ، لكن أثر تلك البيئة لا يزال راسخاً في اعماقي . واعتقد ان الشخص الذي يطلق عليه لفظ كاتب او مبدع يوجد طفل قابع في اعماقه . والابداع نفسه ربما فيه البحث عن هذه الطفولة الضائعة . والادب برمته بحث عن فردوس ضائع والله اعلم اذا كان فردوساً حقيقيًا . حين كبرت ودخلت في تعقيدات الحياة كان عالم الطفولة بالنسبة اليّ فردوساً عشت خلاله متحرراً من الهموم ، اسرح وامرح كما شاء لي الله . . . واعتقد انه كان عالماً جميلاً .

ذلك كان هو العالم الوحيد الذي احببته دون تحفظ ، واحسست فيه بسعادة كاملة . وما حدث لي لاحقا كان كله مشوباً بالتوتر خصوصاً حين هاجرت الى لندن .

في قريتي كنت كما انا ، امتداد لعالم انتمي اليه وحياتي في القرية كانت تبدو مكتملة تماما . رغم انها لم تكن تخلو من الشظف . لكنني كنت فيها كما انا . ولعلني الان بدأت افهم ما يطلق عليه بتواصل الانسان مع بيئته . فقد عشت في بيئة صنعها اجدادنا ، شرب جدي من لبن بقرة ، شربت انا من سلالتها من بعد . وحتى الحمير كنا نعرف من اين جاءت كأنها بني آدم ، نعرف جدها وجدتها وما الى ذلك وكنا نعرف تاريخ كل نخلة على حدة . كل شيء كان متصلاً ومتناسقاً ، كان هناك هارموني بين الإنسان وبيئته . وحين يتحدث علماء البيئة حاليا عن المدن الحديثة ادرك تماماً ما يقصدونه ، لأن الإنسان في هذه المدن عبارة عن خلية أخذت من بيئة أخرى وزرعت في هذه المدن . وعندما تركت قريتي و سافرت إلى لندن ، ساورني طويلاً هذا الإحساس ، الإحساس بأنني خلية زرعت في مدينة كبيرة زراعة اصطناعية . لذلك لم أحس إطلاقاً بالراحة النفسية التي كنت أحس بها في قريتي . . . وكل ما تقدم بي العمر وأطلعت وسافرت أكتشف الى أي حد تصل أهمية تلك البيئة . ولعلني في رواية «ضوالبيت» لامست هذا الإحساس ، عبر الحوار الذي جرى بين الطاهر ود الرواسي ومحيميد . فحين عاد محيميد الى القرية ، قال له الطاهر ود الرواسي ماذا جاء بك إلى هذا البلد الفقُر [1] ، لأن الطاهر ود الرواسي تعامل مع القرية كواقع يعايشه ، ويرى ان تلك القرية تفتقر إلى الخدمات الأساسية التي توجد في المدن ، . . . قرية بدون إضاءة أو مياه عذبة أو مستشفى أو مدرسة وما إلى ذلك . لذا فهي بالنسبة له «بلد فقر» لكن الأمر يختلف مع محيميد الذي هاجر واغترب وزار بلاداً أخرى وعاد إلى القرية ليكتشف مدى أهميتها .

عندما تركت قريتي وذهبت لدراسة المرحلة الوسطى في بورتسودان بعد ان درست المرحلة الاولية (الابتدائية) في القرية ، بدأ يراودني احساس ان هذا الشيء الجميل الذي تركته خلفي سيضيع . وكنت حين اعود الى القرية في العطلات أجلس الى رجل مسن يدعى ابراهيم محمد طه . يروي لي اشياء كثيرة ، اكتشف من خلالها مدى تواصل واتصال الناس بالبيئة .

(1) بلد فقُر تعبير يعني في العامية السودانية بلد تعس .

لقد كانت قريتي مختلفة تماماً عن الأماكن والمدن الأخرى التي عشت فيها ، ، ولاشك ان هذه المنطقة هي التي خلقت عالمي الروائي . وزاد حنيني الى القرية فيما بعد عندما تغربت بالمعنى الحقيقي للغربة . فقد عبرت البحر وذهبت الى عالم آخر مختلف كلية . ويجب الاعتراف بأنني أحاسب نفسي كثيرا على هذا الحنين العارم لمنطقتي ، لأن الاسراف في الحنين يفسد الأدب احيانا . لكن في الواقع أن مرحلة طفولتي تجمدت في ذاكرتي وظلت كما هي . وبعد خروجي من السودان عام 1953 كنت أغيب وأحضر ، لكنني لم أعد جزءاً مستمراً من نسيج المجتمع الذي عشت فيه طفولتي . وخلال أيام الطفولة كنت منغرسا تماما في بيئتي المحلية ، ومارست كل ما كان يمارسه اقراني من الصبية في القرية . رعيت الغنم ، وجمعت التمر ، زرعت في الحقل ، وحفرت . . . وشاركت أهلي في كل شيء . ولعلني كنت حسن السمعة و مضرب المثل ، سمعتي طيبة وسط الناس ، وحتى بعد ان تعلمت لم اتعال عليهم . اساعدهم في كل شيء ، وكل ما يطلب مني أفعله . والناس تعتقد أنني رضي . وقد أصيبوا بدهشة حين تغربت ، ولم يكن أحد يتوقع ان افعل ذلك ، ولعلهم تساءلوا لماذا فعلت ما فعلته . لانني لم اكن متمرداً على بيئتي ، لقد خرجت من تلك البيئة صدفة وطال الزمن . وحتى حين كنت في لندن ، وأزور الخرطوم كنت أسافر مباشرة بالطائرة الى منطقتي ، ويصدف أحيانا ان اكون بعد 24 ساعة من مغادرتي الى لندن في الدبة مع أصحابي وأقراني القدامى وكأن شيئا لم يحدث . . . وأتركهم بعد تمضية العطلة وأسافر الى لندن .

الحســــرة الكبرى في حــــياتي ، أن طفولتي في القــــرية لن تعود مرة ثانية . . . .

لقد كان عالما أحببته دون تحفظ واحسست فيه بسعادة كاملة .»

الفصل الثاني

الأمكنة : من الدبة الى بخت الرضا !

سنوات الدراسة

الواضح أن سنوات الدراسة لم تؤثر كثيراً على الطيب صالح ، أو لعلها لم تستقر في ذاكرته ، كما حدث بالنسبة لسنوات الطفولة . لذلك سنلاحظ انه لم يتوقف عندها كثيراً وهو يحكي لي هذه السيرة الذاتية .

فقد انتقل من قريته الى بورتسودان ، لمتابعة دراسته في المرحلة الوسطى .

كانت بورتسودان حين جاءها الطيب صالح في مطلع الأربعينات تعد المدينة

الثالثة في السودان بعد الخرطوم ومدني [1] وهي مدينة استحدثها الانجليز بعد استعمارهم للسودان ، لتصبح الميناء الوحيد للبلاد على البحر الاحمر ، وكانت مدينة سواكن هي الميناء قبل ذلك ، لكن الانجليز وجدوا ان سواكن لا تفي بالغرض ولا تقبل التوسع ولعلهم ارادوا ايضا لاسباب سياسية القضاء عليها ، فهجرت وتحولت الى أطلال تحكي فقط حكاية ميناء انقرض وتلاشى .

ولم يجد الانجليز اسماً عربياً يطلقونه على بورتسودان ، ربما لان المنطقة كانت خلاء ولم تكن بها ساكنة . فحمل الميناء الجديد اسماً أعجمياً ، يتكون من عبارة PORT OF SUDAN اي ميناء السودان ، بيد ان السودانيين وعلى طريقتهم في اختصار الاشياء عربوا هذه الجملة ، لتصبح «بورسودان» ثم ما لبثت ان تحولت الى «بورتسودان» .

والواضح ان هذه المدينة التي شيدت على عجل لتصبح ميناء لم ترق كثيراً للطيب صالح ، بل لعله لم يجد تلك البيئة التي انغرس فيها في قرى منطقة مروي . وحين طلبت منه ان يحكي لي عن بورتسودان عندما جاءها تلميذاً في المرحلة الوسطى ، كان يقفز على السؤال لينتقل الى موضوع آخر .

بعد ذلك سينتقل الطيب صالح الى ام درمان لمتابعة دراسته الثانوية ، في مدرسة «وادي سيدنا الثانوية » وكانت في السودان آنذاك مدرستان ثانويتان ، اقرب الي المدارس العليا . وهما وادي سيدنا وحنتوب [2] . كان الطالب الذي يجتاز امتحان المرحلة الوسطى وينتقل الى احدى هذه المدارس يعد من النابغين . ورغم ان مدرسة وادي سيدنا تقع في اطراف امدرمان فان تلك الفترة اتاحت للطيب صالح التعرف للمرة الاولى على المدينة بسماتها العصرية . ويبدو جلياً أن امدرمان تركت بصمات ملحوظة على نفسية هذا الطالب الذي جاء من الاقاليم للدراسة في العاصمة . لقد اراد الانجليز أن تكون المدارس الثانوية بعيدة عن المدن حتى لا يختلط الطلاب بالاهالي لاسباب سياسية .

تقع الخرطوم عاصمة السودان ، عند ملتقى النيلين الابيض والازرق ، وهي تتكون في الواقع من ثلاث مدن ، الخرطوم ،امدرمان ، والخرطوم بحري ، لذلك

(1) مدني مدينة تقع في وسط السودان ويطلق عليها احيانا عاصمة الجزيرة نسبة الى مشروع الجزيرة ، وهو أكبر مشروع زراعي في البلاد .

(2) مدرسة وادي سيدنا توجد قرب أمدرمان المجاورة للخرطوم ، وحنتوب قرب مدينة واد مدني في وسط السودان .

يطلق السودانيون على عاصمتهم احيانا اسم «العاصمة المثلثة» . وتقع امدرمان على الضفة الغربية للنيل الابيض الذي ينبع من بحيرة فكتوريا في اوغندا ، ويسير في رحلة طويلة حتى يلتقي في الخرطوم بالنيل الازرق الذي ينبع من بحيرة تانا في اثيوبيا ، ليصبا بعد ذلك في نهر واحد يخترق شمال السودان في رحلته الابدية نحو مصر ومصبه في البحر الابيض المتوسط .

وامدرمان التي عاش فيها الطيب صالح سنوات الصبا والخصوبة الفكرية والنفسية ، كان محمد احمد المهدي الذي قاد الثورة ضد الحكم التركي ليعلن السودان بلداً مستقلاً في اواخر القرن التاسع عشر ، قد إتخذها عاصمة له حين استولى على الخرطوم . لذلك سنجد ان احياءها خاصة العتيقة تحمل اسماء المصالح الحكومية لدولة المهدي مثل حي « بيت المال » وحي «الملازمين» وحي «الضباط »وحي «الطابية » وما الى ذلك .

وقد هاجر عدد كبير من انصار المهدي واستقروا في امدرمان ، كما نزحت اليها بعض القبائل الاخرى باعداد متباينة ، وكونوا خليطاً يمثل في واقع الامر السودان الشمالي والاوسط والغرب . لذلك حين يقال ان فلاناً «امدرماني» فان ذلك يعني انه من ابناء العاصمة التي انصهرت واندمجت فيها الانساب والاعراق . اما الخرطوم فهي مدينة حديثة اعاد تشييدها الانجليز لتكون عاصمة ادارية للبلاد ، لذلك بنوا فيها الوزارات والمصالح الحكومية وبعض الاحياء التي قطنها الموظفون الذين عملوا في الخدمة المدنية ، لكن المدينة سرعان ما امتدت وتوسعت عقب الاستقلال .

وفي الخرطوم سيمضي الطيب صالح فترة قلقة حين انتقل اليها للدراسة في كلية الخرطوم الجامعية (جامعة الخرطوم فيما بعد) ومن الواضح كذلك ان الخرطوم لم تستهوه كما كان الحال بالنسبة لامدرمان ، وبالتأكيد فان تأثير المدينتين يعد شيئا لا يذكر في حياة هذا الكاتب مقارنة مع قريته .

لقد التحق الطيب صالح بكلية الخرطوم الجامعية بتفوق . واختار كلية العلوم ، دافعه إلى ذلك رغبته في أن يدرس الزراعة في وقت لاحق ، لكن الأمور لم تمض كما رغب ، فاضطر الى ترك الجامعة ، وهو ما سيتعرض له بالتفصيل في هذا الفصل .

لقد ترك الطيب صالح جامعة الخرطوم ، وكانت آنذاك منارة باسقة للعلم ، تزود البلاد بنخبتها السياسية والفكرية والعلمية . ولعبت هذه الجامعة دوراً مؤثراً وفاعلا في الحياة السياسية والاجتماعية في السودان على مدى الاحقاب .

لكن تشاء الظروف ان لا يبقى الطيب صالح طويلاً في جامعة الخرطوم ، ولو قدر له البقاء آنذاك ، لكان من المؤكد انه سيتبوأ منصباً مرموقاً في الحكومة السودانية . . . وربما كان السودان سيجد فيه موظفا سامياً كفؤاً . . . لكنه قطعا سيفقد فيه الكاتب والاديب . لان الطيب صالح سيكتب لاحقاً ليمد جسوراً مع بيئته الاولى كما سنتعرف على ذلك تفصيلا . لنقرأ معاً ما يقوله الطيب صالح حول سنوات الدراسة .

****

«بعد ان اكملت المرحلة الاولية في قريتي ، انتقلت لدراسة المرحلة الوسطى (الاعدادية) في بورتسودان ، إذ لم تكن توجد في منطقة شمال السودان إلا مدرسة واحدة في بربر ، لذلك اضطررت للانتقال الى بورتسودان لعدم وجود مدرسة وسطى في منطقتنا . كان دخول المدرسة الوسطى في ذلك الزمان يعتبر حدثاً كبيراً ، اذ ان المنافسة شديدة للحصول على مقعد في احدى المدارس الوسطى . وبعد دخولنا للمدرسة الوسطى بدأنا في تعلم اللغة الانجليزية ، وهذه مسألة كانت تبدو لنا ولاهلنا مهمة جداً ، الذين يعتبرون ان الانتقال للمدرسة الوسطى يعد بمثابة قفزة كبيرة ، فالطالب يكون عملياً قد دخل عالم الافندية (الموظفين) .

حين بدأت تعلم اللغة الانجليزية اكتشفت مدى حبي لهذه اللغة ، ورغم ان الانجليزية كانت لغة المستعمرين ، لكن في تلك الفترة لم يكن لدينا وعي وادراك لمسألة الاستعمار ، والانجليز في السودان كان عددهم قليلاً وليس لهم احتكاك مع الاهالي ، وجميع الاداريين من الانجليز في كل السودان لم يتعدّ 500 موظفاً ، وكانوا يشغلون الوظائف العليا في الادارة مثل مدير المديرية أو مفتش المركز . واتذكر ونحن

في المدرسة الوسطى ان زارنا مدير المديرية وكان مركز المديرية في كسلا[1] ، وابلغنا أن الـ GOVERNER (اي الحاكم) سيزور المدرسة ، ووقع علي الاختيار لارحب به لانني كنت افضل زملائي اجادة للغة الانجليزية ، وبالفعل وقفت امامه لاردد عبارة LONG LIVE THE GOVERNER (أي عاش الحاكم) والواقع انني لم أدرك آنذاك ماذا يعني « حاكم اجنبي » او «استعمار» إلا بعد ان إنتقلت الى المرحلة الثانوية . وقد تعلمنا اللغة الانجليزية على مدرسين سودانيين ممتازين . وحين بدأت تعلمها راودني شعور بانني ادخل الى عالم جديد حافل برموز جديدة تحتاج الى تفكيك . وزاد حبي للغة الانجليزية بعد ان انتقلت الى الثانوية ويبدو أنه من الطبيعي اذا أحب المرء شيئاً برز فيه ، والواضح أن سبب تفوقي في اللغة الانجليزية كان مرده الى حبي لهذه اللغة . واتذكر من هذه المرحلة بعض اساتذتي ومنهم الاستاذ مندور المهدي وهو اصلا من بلدة كورتي ، وهي قريبة من الدبة[2] . وقد امتدت صداقتي لمندور المهدي بعد ذلك لسنوات الى ان توفي رحمه الله . كان مندور المهدي شديد التعصب لابناء منطقتنا وتشاء الظروف ان التقي به مجددا في الجامعة فقد كانت تتاح الفرصة لمدرسي المرحلة الوسطى عند حصولهم على الشهادة السودانية (البكالوريا) دخول الجامعة دون ان يفقدوا وظيفتهم او راتبهم . وبعد الجامعة انتقل مندور المهدي الى لندن ودرس التاريخ وأصبح فيما بعد وكيلاً لوزارة التربية والتعليم . وقد درست في فصل به بعض زملائنا من أبناء البحر الاحمر ومن كسلا .

لكن ابناء منطقتنا في الفصل كانوا يتميزون بذكاء شديد ، لذا انتقل عدد كبير منهم للمرحلة الثانوية . ومن تلك الفترة اتذكر زميلي الذي سيحصل على شهادة الدكتوراه من بعد ، وهو الدكتور محمود احمد محمود ، وكان من نوابغ جيلنا . ورغم انه درس الزراعة لكن اعتقد انه لو كان اتجه اي اتجاه لتفوق فيه . واتذكر ان محمود احمد كان يحدثنا في تلك الفترة عن السينما واسماء الافلام والممثلين ، واشياء بدت لنا من عجائب الدنيا .

---

(1) تقع مدينة كسلا في شرق السودان قرب الحدود الارترية .

(2) الدبة قرية الطيب صالح ، وكورتي قرية من قرى مناطق قبائل الشايقية .

ولم أعرف شخصياً السينما إلا في عام 1946 حين انتقلت الى المرحلة الثانوية ، عندئذ دخلت السينما لاول مرة في حياتي لاشاهد فيلما مصريا مثلت فيه بدرية رأفت أظن اسمه (ليلى بنت الصحراء) . كان ذلك حدثاً كبيراً في حياتي ، لان اهلنا كانوا يمنعونا من دخول السينما بحجة انها تفسد اخلاق النش ء . كان ناظر مدرستنا في المرحلة الوسطى يسمى الاستاذ ازرق وهو من قبيلة الجاذيب وكان رجلاً فاضلاً ومربياً محترماً .

مدرسة وادي سيدنا

بعد المدرسة الوسطى في بورتسودان انتقلت لدراسة المرحلة الثانوية في مدرسة وادي سيدنا في امدرمان ، وفي الاصل كانت هناك مدرسة ثانوية واحدة هي كلية غردون (جامعة الخرطوم لاحقا) وأراد الانجليز إقامة مدرسة ما بين المرحلة الثانوية والجامعة ، فانشأوا ما سمي آنذاك بالمدارس العليا فنقلت تلك المدرسة الى امدرمان لندرس فيها سنة واحدة بعد ذلك قسمت الى مدرستين وادي سيدنا وحنتوب . وكان حدثا كبيرا آنذاك قيام مدرستين ثانويتين ، كان جميع الطلاب الذين ينتقلون من المرحلة الوسطى الى الثانوية في كل السودان يبلغ 120 طالبا فقط . واعتقد ان اي طالب ينجح في الانتقال الى المرحلة الثانوية في تلك الفترة ، كان يعني انه مفرط الذكاء . . . وبعبارة اخرى كان هؤلاء الطلاب يشكلون زبدة السودان ونخبته الحقيقية ، وبالفعل كانوا جميعاً من النابغين .

كانت مدرسة وادي سيدنا الثانوية مدرسة فاخرة ، بناها الانجليز بناءً باذخاً على غرار اعظم المدارس في انجلترا ، وكنا ندرس تماما كما يدرس الانجليز في مدارس الارستقراطيين في ايتون ، أوهارو (ETON or HARRO) . والمؤكد ان الانجليز كان يهمهم تخريج نخبة سودانية تدين لهم بالولاء ، لذلك اعتنوا بالمبرزين في اللغة الانجليزية ، ولانني كنت من المتازين في الانجليزية ، فقد ابلغني مستر لانغ ناظر المدرسة بانه في حالة حصولي على إمتياز في الامتحان النهائي سيتم إيفادي للدراسة الجامعية في كيمبردج او اكسفورد . ورغم انني حصلت على الامتياز فان اهلي لم يقبلوا فكرة سفري الى لندن ، واضاعوا علي فرصة طيبة .

كنا نقيم في وادي سيدنا في الاقسام الداخلية ، اي اننا نعيش داخل المدرسة ، ورغم بعد المدرسة عن المدينة فقد كانت حياتنا حافلة . نستيقظ في

السادسة صباحا ، لنمارس بعض الالعاب الرياضية مثل الجري او الجمباز ، ثم نتناول الافطار ، وبعدها نذهب الى الاجتماع الصباحي (ASSEMBLY) حيث يصطف جميع الطلاب في طابور كل فصل يقف وحده ، ويجيء الناظر ليخاطب الطلاب ويزودنا عادة ببعض النصائح والارشادات ، والواقع انه كان شيئاً مهيباً حين ترى المدرسة كلها تقف في طابور صباحي وآخر مسائي .

بعد طابور الصباح ندخل الفصول لنتابع الدراسة ، حتى فترة الغداء ، وفي العصر نعود لممارسة بعض الرياضات ، وفي السادسة مساء نعود الى الفصول لنمضي ساعتين في مراجعة الدروس ، بعد ذلك نتناول وجبة العشاء في الداخليات ، وفي العاشرة ليلاً تطفأ الانوار ويخلد الجميع الى نوم إجباري . كانت حياتنا تسير بهذه الوتيرة في المدرسة دون تغيير باستثناء العطلة الاسبوعية .

كانت امدرمان في تلك الفترة ، هي المدينة التي ترنو اليها باقي بلاد السودان . مدينة تحمل طابع القرية . وكان كل واحد منا يجد ان لديه اقارباً او اهلاً في امدرمان ، لان قبائل كثيرة نزحت اليها واستقرت فيها . كانت مكانا كما يقول الانجليز « ميكروكوزم » ، اي صورة مصغرة للقطر ، لقد بدأت امدرمان تتكون بكيفية طبيعية لكننا كسرناها لسوء الحظ .

ورغم اننا ننتمي للريف فاننا وجدنا اقارب في امدرمان ، نزورهم كل خميس ونمضي معهم الليلة لنعود بعد ظهر الجمعة الى المدرسة . لقد وضعونا في عزلة لكنهم وفي الوقت نفسه لم يقطعوا صلتنا بالمدينة . وفي بعض الاحيان كنا نذهب الى امدرمان لحضور محاضرات في نادي الخريجين ، واحيانا يزورنا بعض الاساتذة لالقاء محاضرات ثقافية في المدرسة .

وقد ارتبطت امدرمان منذ زمن مع قرانا في منطقة مروي عن طريق صحراء (بيُّوضة) ، عبر طرق بريّه كانت تستعملها قوافل الجمال في طريقها الى مصر ، واستعملتها العربات في وقت لاحق .

اما الخرطوم فقد كانت تبدو لنا مدينة غريبة ، حين نزورها نشاهد الدور التي يسكنها الانجليز والحدائق ، والدور الحكومية التي اصبحت فيما بعد وزارات وقصر الحاكم ، وكلية غردون التي ستتحول لاحقا الى جامعة الخرطوم .

بنيت الخرطوم على النمط الاوربي ، لكن امدرمان كانت مدينة سودانية نمت نمواً طبيعياً ، ويا ليتهم كانوا قد حافظوا عليها وشيدوا مدناً اخرى على غرارها .

أيام الجامعة . . .

بعد ان اكملت المرحلة الثانوية انتقلت للدراسة في كلية الخرطوم الجامعية وكان ذلك خلال عامي 1949 و1950 وبما انني حصلت على شهادة جيدة ، وعلى درجات ممتازة في العلوم فقد التحقت بكلية العلوم ، التي كانت تؤهل طلابها للالتحاق بكليات الطب والزراعة والصيدلة والبيطرة والهندسة ، والواقع انني كنت أرغب في دراسة الآداب ، وحتى مستر لانغ ناظر مدرسة وادي سيدنا شجعني على دخول كلية الآداب وترجاني ان افعل ذلك ، لكن كانت تستهويني دراسة الزراعة ، إذ بدت لي مسألة رومانتيكية ، نظرا لعلاقة الزراعة بالبيئة ، خاصة وانني جئت من بيئة يغلب عليها النشاط الزراعي . وفي ذلك الزمن كان خريج كلية الزراعة يتم تعيينه في وظيفة مفتش زراعة ، وتلك كانت وظيفة محترمة جداً ، إذ عادة ما يسكن مفتش الزراعة في دار فسيحة وواسعة في الأرياف ، وتخصص له مزرعة ومواشي وخدم . . .

في الجامعة سألتقي مجددا بمندور المهدي الذي درسني في المرحلة الوسطى ، فقد التحق هو نفسه بكلية الاداب . ونصحني بدراسة الطب ، لكنني فضلت الزراعة لذلك التحقت بكلية العلوم لادرس الزراعة بعد السنة الثانية . بيد أنني صدمت في المناهج التي كنا ندرسها ، فقد وجدت في السنة الاولى في كلية العلوم ، انه لابد من تعلم تشريح الارانب والصراصير والفئران ، وهكذا تبددت كل الرومانسية التي كانت في ذهني حول دراسة الزراعة ، حين شرعت في تشريح الصراصير والفئران !

وإلى جانب ذلك ، كنا نتلقى دروساً في الكيمياء ، وتركيب المحاليل ولم تعجبني تلك المواد . ورغم التحاقي بكلية العلوم فقد كنت اذهب احيانا للاستماع الى محاضرات في كلية الآداب . وكان يحاضر هناك انجليزي يدعى مستر هارت ، وشاركت احيانا في النقاش ، خاصة حين يتحدثون عن كينز وشلي ، وربما لفتُّ انتباه مستر هارت حين كنت اناقشه ، وفي احدى المرات وبعد ان انتهى من القاء محاضرته ، استفسرني قائلاً : «من أين تأتي؟ أنت لست من طلابي» ، وعندما

قلت له انني ادرس في كلية العلوم ، وكان يحتقرها جداً ويسميها المدرسة الأخرى (The other school) ، طلب أن يطلع على شهادتي الثانوية ، فوجد أنني حصلت على درجات ممتازة في المواد الادبية ، فاقترح علي أن التحق فوراً بكلية الآداب ، وكنت آنذاك في السنة الثانية في كلية العلوم ، ورغم ضيقي من المواد العلمية ، فان مستواي كان جيداً . لكن حدث لي اختلاط في ذهني ، بين رغبتي الدفينة وربما تجاوبي مع المواد الادبية ، وبين مسألة تشريح الصراصير والفئران في كلية العلوم ، لذلك قررت أن أترك الجامعة برمتها .

مدرس في رفاعة

بعد أن تركت الجامعة ، عملت في التدريس ، كمدرس في المرحلة الوسطى (الاعدادية) ، وعينت في مدرسة الشيخ لطفي في رفاعة (وسط السودان) ، وكنت أعتزم العودة لمواصلة دراستي الجامعية في وقت لاحق . كان الشيخ لطفي صاحب المدرسة من الرواد الأوائل للتعليم الاهلي ، وهو من أمثال الشيخ بابكر بدري أب التعليم الاهلي في السودان .

أمضيت في رفاعة فترة قصيرة . عاماً وبعض عام . وكانت تلك هي المرة الأولى التي انتقل فيها الى مدينة جنوب الخرطوم . ووجدت ان رفاعة تماثل منطقتنا واستقرت فيها اسر وعائلات هي أصلاً من شمال السودان ، بل وجدت حياً يطلق عليه ديم الركابية ، وهي قبيلتنا في الشمال .

ورغم انها بلدة صغيرة لكن فيها خليط من القبائل ، ولانها خليط كان يقال عنها «رفاعة الرِّبّة لافقير لاقبة» اي رفاعة الخليط التي لا توجد فيها قباب لمشايخ الطرق الصوفية . وسكانها مزيج من قبائل الشكرية والبطاحين والشايقية والجعلين ، ومن عائلاتها ، اسرة المرحوم الطيب الريح وابنه ابراهيم الريح ، وكان والدهم رجلاً فاضلاً ، وهم اصهار صديقي فتح الرحمن البشير .

اعجبني في رفاعة تحضر اهلها ، خاصة انهم دخلوا المدارس وتعلموا قبل ان ينتشر التعليم ، لذلك سنجد أن عدداً كبيراً من أبناء رفاعة درسوا في كلية غردون (جامعة الخرطوم لاحقا) . وقد أثر انتشار التعليم في رفاعة على نمط حياة الناس

وسلوكهم وبيئتهم المحلية ، لذا بنيت فيها بعض الدور بالطوب الاحمر ، في وقت كانت فيه معظم البيوت في مدن السودان تبنى بالطين .

واذكر انني اقمت في منزل فيه فناء كبير جداً ، «حوش »كما نقول في السودان ، استأجرته بمبلغ 70 قرشاً اي اقل من جنيه . وكان يمتلك المنزل احد ابناء الشيخ الجزولي وهو من وجهاء رفاعة . وكان شيخ الجزولي ، رحمه الله ، رجلا فاضلاً .

كان يقول لي مازحاً : (خلينا نزوجك واحدة من بناتنا وتقعد معنا .)

وكادت الفكرة ان تستهويني ، خاصة ان اهل رفاعة كما اسلفت متعلمون ومتحضرون ، وفتياتهم جميلات ، ويبدو ان جمالهن المميز سببه إختلاط القبائل . ومن وجهاء رفاعة آل أبوسن وآل عبدالرحمن علي طه أحد كبار رجال التعليم في السودان ، وهو من قرية العمارة لكنها متصلة مع رفاعة منذ سنوات طويلة .

وخلال وجودي في رفاعة تعرفت كذلك على بعض مدن وقرى الجزيرة مثل مدني عاصمة الجزيرة ، والحصاحيصا وابو عشر والهلالية ، وتمبول وارض البطانة .

أمضيت في رفاعة فترة طيبة ، لان البلدة كانت جميلة واعجبتني كثيراً ، ومازلت اكن لرفاعة ولاهلها حبًا وتقديراً كبيرين .

بخت الرضا

انتقلت من رفاعة إلى معهد بخت الرضا [1] ، كان معهد بخت الرضا تجربة مهمة جدا في تاريخ التعليم في السودان ، وقد شيد ذلك المعهد لتحقيق فكرة متطورة للغاية ، لكن الفكرة اسيء فهمها فيما بعد . فقد كان مستر قرفث (Mr. Griffith) صاحب الفكرة يهدف الى ربط التعليم بالبيئة ، لذلك شيد المعهد لتدريب المدرسين من جميع انحاء السودان في مدرسة نموذجية ملحقة بالمعهد .

كانت المدرسة النموذجية تنقسم الى قسمين ، المدرسة الصغرى (ثلاث سنوات) ثم المدرسة الأولية (اربع سنوات) ، وفي هذه المدرسة اشتهر رجل التعليم احمد الطيب ، وكان رحمة الله عليه ورغم نبوغه الشديد يفضل تدريس الاطفال الصغار في المدرسة الصغرى .

---

(1) يقع معهد بخت الرضا والذي كان عبارة عن معهد لتدريب المدرسين في المرحلة الابتدائية والوسطى قرب مدينة الدويم جنوب الخرطوم على النيل الأبيض .

كان التلاميذ الى جانب الدراسة يتعلمون الزراعة ، ويعيشون مع مدرسيهم حياة متقشفة تماثل حياة التقشف التي كانت تنتظم كل السودان في تلك الفترة .

خريجو معهد بخت الرضا ، وحتى يومنا هذا مشهود لهم بالنبوغ والكفاءة ، واذكر منهم محمد خير عثمان الذي أصبح وزيراً للتربية والتعليم فيما بعد ، وعبدالوهاب موسى وكان من دفعتنا ، والمرحوم سيد احمد نقد الله ، كما اشتهر فيها بعض المدرسين الذين اصبح لهم شأن كبير في مجال التعليم في السودان مثل عبدالرحمن علي طه ومكي عباس .

ومن الاشياء اللافتة في بخت الرضا الكتب التعليمية التي كان المعهد يشرف على تأليفها واصدارها ، . . . من ذلك ، كتاب كان يدرس فيه تلاميذ المدارس الاولية (الابتدائية) جغرافية بلادهم بشكل بديع جداً ، كان اسم هذا الكتاب هو« سبل كسب العيش في السودان» ، وفكرة الكتاب تعتمد على تقديم معطيات جغرافية واجتماعية وبيئية عن جميع مناطق السودان ، وذلك عبر جولة قام بها فريق عمل إلى عدد من القرى والمدن الصغيرة ، وكانوا في كل قرية يختارون طفلاً في سن تلاميذ السنة الثالثة ويمضي هذا الفريق اياماً واسابيع مع الطفل واسرته ، ثم كتبوا ملاحظات تهم احوال الاسرة المعيشية ونشاطها الاقتصادي وعاداتها الاجتماعية ، ومعلومات حول المناخ في المنطقة . والمنازل والنشاط السكاني وما إلى ذلك . وجمعت المادة في كتاب (سبل كسب العيش في السودان) ، بأسلوب مبسط ورشيق وجذاب يتلاءم مع القدرة الاستيعابية للتلاميذ . وقد ساهم في ذلك الكتاب عبدالرحمن علي طه ومكي عباس ، وآخرون اصبح لهم شأن كبير في مجال التعليم والواقع ان تجربة معهد التربية في بخت الرضا اكتسبت شهرة عالمية وأصبح عميده ، مستر قرفث ، فيما بعد استاذاً للتربية في جامعة اكسفورد .كانت تجربة بخت الرضا رائعة ورائدة . وقد امضيت هناك ما بين اربعة الى خمسة اشهر . ومن بخت الرضا انتقلت الى لندن . . . وتلك حكاية طويلة جداً» .



الفصل الثالث

لندن على امواج البي . بي . سي .

في عام 1952 ستعلن هيئة الاذاعة البريطانية (BBC) ، القسم العربي ، عن حاجتها لمذيعين ومحررين ومترجمين سودانيين في إطار سياستها التي ترمي أن يضم طاقمها جنسيات من مختلف الأقطار العربية .

كان الطيب صالح يعمل آنذاك مدرساً ، ويفكر في العودة مجدداً لجامعة الخرطوم لاستكمال دراسته الجامعية . والمؤكد انه اطلع على اعلان هيئة الاذاعة البريطانية ، ولم يحفل به أول الأمر ، ثم سيقدم طلباً دون ان تكون لديه رغبة

حقيقية في مغادرة السودان ، لكن تشاء الظروف ان يُقبل الطلب ويدخل في امتحان ويتم اجراء معاينة له في مكتب الاتصال العام في الخرطوم ، ويتقرر بصفة نهائية قبوله للعمل في هيئة الاذاعة البريطانية ، وخلال فترة وجيزة كان قد أكمل اجراءات السفر الى لندن . كان هدفه اكمال دراسته ، وكان اغراء السفر الى لندن في ذلك الزمان ، له سحر خاص .

****

نحن الآن في شتاء عام 1953 ، وكان من اسوأ الشتاءات التي تعرفها انجلترا .

الآن سيقتلع الطيب صالح نفسه اقتلاعاً ليركب الطائرة من مدينة امدرمان الى لندن . . .

كانت الاشياء قد إختلطت في ذهن هذا الشاب الذي يبلغ من العمر آنذاك 24 سنة فقط . فقد عاش اربع سنوات قلقة . . . وهو نفسه يصف تلك الفترة بانها كانت فترة «اللخبطة» . . .

لقد ترك وراءه سنوات الصبا . . . . والاهل ودفء العشيرة ، بحثا عن مجهول لم يكن يرغب فيه . . . ولعل تلك هي إحدى المفارقات في حياة الطيب صالح . لكن هذه النقلة في المكان والزمان هي التي ستصنع عالمه الروائي . . . . فقد انتقل الطيب صالح من عالم إلى آخر ، وهنا بدأت تمور بداخله تناقضات شتى ، وسيضج رأسه بأفكار وانطباعات وبخليط من الأشياء المتداخلة . . . وسيتحول كل ذلك إلى أعمال روائية ساخنة كتبت بلغة رفيعة ، تعالج قضايا إنسانية وترتاد آفاقاً بعيدة . . .

كان الانتقال إلى لندن بمثابة نقلة كاملة في حياة الطيب صالح ولعله أراد كما يقول إقامة جسر بين بيئته المحلية وبين عالم يختلف جذرياً عن تلك البيئة ، من خلال أعمال روائية . . .

من هنا لم تكن لندن محطة في حياة الطيب صالح ، بل كانت مرحلة كاملة . . . . مرحلة فوارة ولاشك ، وفي ما يلي بعض تفاصيل تلك المرحلة كما عاشها وكما يرويها .

****

«وصلت إلى لندن في شتاء عام 1953 . عند وصولي لسعني البرد ، واحسست بزمهرير داخلي . . . فاجأني هذا الطقس ، فقد جئت من منطقة حارة ، وهأنذا أصل الى منطقة باردة جداً . كانت هناك سحابة من دخان اسود فوق سماء لندن ، هذه السحابة نتيجة اختلاط دخان الفحم الحجري مع الضباب وهو ما يطلق عليه الانجليز كلمة Smog ، ونظرا للاستعمال الكثيف للفحم الحجري في تدفئة المنازل خلال تلك الفترة ، فان السواد كان يغطي سماء لندن باستمرار .

جئت للعمل في هيئة الاذاعة البريطانية (BBC) ولم يكن لدي سابق معرفة بالعمل الاذاعي . . . وأحسست أنني وقعت في ورطة حقيقية . . . . فقد جئت الى بلد لم أكن أرغب فيه لاعمل عملاً هو كذلك ليست لي رغبة فيه . . . والمفارقة انني حتى اليوم اقحم نفسي أحياناً في أشياء لا أحبها . . . وهذا من أخطائي الكبيرة .

حين لسعني برد لندن قلت في نفسي : ترى ما الذي ورطني هذه الورطة . . .؟

كانت بدايتي في لندن قاسية جداً ، لانني تركت الاهل والاحباب والدور الفسيحة ، والتواصل الاجتماعي ، لاجد نفسي داخل غرفة صغيرة برودتها لا تطاق في بلد غريب وبين قوم غرباء !!

وإذا كان لبعض الناس مبرراتهم في الاغتراب والهجرة ، فلم يكن لدي اي حافز لافعل ذلك . هناك أناس خرجوا من السودان لانه لم تعجبهم بيئتهم ، او لانهم يريدون جمع الفلوس . . . أو من أجل الدراسة . وبالنسبة لي لم يكن هناك اي شيء من كل هذا . اللهم الا الدراسة . . . ، ربما.

كانت لندن آنذاك قريبة عهد بالحرب العالمية الثانية ، آثار الدمار والحرب لاتزال موجودة . ونظام التموين لايزال معمولاً به . والانجليز كانوا انجليزاً لان وجود الغرباء كان محدوداً . ولم تكن هناك نظرة عدوانية أو عنصرية تجاه الاجانب ، وهو الشعور الذي بدأ يبرز لاحقا بسبب التنافس على سوق العمل بين الانجليز والمهاجرين الجدد . ولم يكن التعرف على الانجليز او الاندماج في مجتمعهم أمراً سهلاً .

كان عدد السودانيين آنذاك محدوداً ومعظمهم من المبعوثين للدراسة . وأول مشكلة واجهتني في لندن هي الأكل ، مكثت ستة أشهر اكاد لا آكل . بدا لي أن اكلهم -ومعظمه مسلوق- غريب المذاق . . . . فقد اعتدت على أكل له طعم ورائحة نفّاذة ، وحاسة الشمّ لديّ كانت قوية جداً .

سكنت في البداية في غرب لندن في منطقة كوينزوي . فقد اعتاد السودانيون السكن في كوينزوي ومنطقة بادنجتون . وهناك اكتشفنا مطعماً هندياً اسمه «مطعم لاهور» . ولان للأكل السوداني مذاقاً حاراً ويستعمل السودانيون كثيراً من البهارات ، فقد راقنا ذلك المطعم . كنا ننتقل الى باد نجنتون لنأكل في هذا المطعم ، ثم ما لبثنا ان اعتدنا على أكل الانجليز خاصة شرائح لحم البقر (Roast Beef) . لكن هناك اكلات لم استسغها حتى اليوم ، مثل خضار يعتبره الانجليز لذيذاً جداً يسمى Cabbage ، وهو عبارة عن خضار مسلوق ، فقد بدت لي أكلة ماسخة جدا .

كان السودانيون يلتقون كثيراً في مطعم لاهور .

في تلك الفترة تعرفت على شخص لطيف جداً ، جاء الى لندن في بعثة دراسية يدعى الصادق النور رحمه الله من آل الفيل في السودان . وأعتقد انه عاد بعد ذلك الى السودان وعمل مديراً لمتحف الخرطوم .

وصادفت في لندن كذلك صديقي وزميل الدراسة القديم ، صلاح احمد محمد صالح ، وكان يتدرب آنذاك في إذاعة لندن ، ثم عاد ليعمل في اذاعة امدرمان [1] قبل ان يلتحق بالسلك الديبلوماسي ويتدرج فيه إلى أن أصبح سفيراً .

(1) توجد الاذاعة السودانية في مدينة امدرمان المجاورة للخرطوم لذلك اطلق عليها اسم اذاعة «هنا امدرمان»

في البداية سكنا في بيتين متجاورين ، ثم استأجرنا منزلاً وسكنا فيه سوياً .
و التحق بنا الدكتور محمود عبدالرحمن زيادة رحمة . . . وجاء سودانيون آخرون ، وسكنوا إلى جوارنا .

كنا نسعى الى تكوين عشيرة في الغربة .

كنا نتجمع في عطلات نهاية الاسبوع (Week end) في «بيت السودان» ، ويأتي زملاء لنا من كمبردج واكسفورد وحتى من اسكتلندا . كان بيت السودان يشتمل على غرف للقادمين الجدد يسكنون فيها إلى حين يجدون سكناً ملائماً وأحيانا نذهب الى النادي المصري لنأكل الفول والطعمية . ومن وقت لآخر يزور لندن بعض المطربين السودانيين ، واذكر من هؤلاء الفنان احمد المصطفى الذي اقام معنا في البيت . كانت مثل هذه الزيارات تشكل حدثاً مهماً ، لان السودانيين يجتمعون في بيت السودان للاستماع لهؤلاء المطربين . . . ونسعد سعادة كبيرة بتلك الامسيات . كنا نبحث عن اي شيء يربطنا باهلنا وبلدنا .

وفي بعض الأحيان يحدث أن يتزوج أحدنا تتم حفلة عقد القران في السودان ويرسلون له العروس فنقيم عرساً مصغراً احتفاء بقدوم العروس . وفي الوقت نفسه نسرى عن انفسنا في غربة موحشة .

وأذكر من بين هؤلاء ، عبدالعظيم محمد حسين رحمه الله ، وهو اصلاً من تنقسي (منطقة مروي) ، وقد كان زميلي اثناء الدراسة في وادي سيدنا الثانوية ، ودرس بعد ذلك الزراعة وتدرج في الوظائف حتى تولى منصب محافظ مشروع الجزيرة .

ظل هاجسي في البداية كيفية التأقلم مع الناس والبلد ، ولم تكن لدي مشكلة مع اللغة ، لان لغتي الانجليزية حسنة . لكن التأقلم بالنسبة لنا كسودانيين يتم ببطء شديد عكس المصريين واللبنانيين والفلسطينيين . . . ويبدو لي الآن ، ان سبب بطء الاندماج في البيئة هي خلفيتنا الريفية التي لم تكن تساعد على التأقلم مع حياة عصرية في مدينة مثل لندن . ثم ان عاداتنا وتقاليدنا تختلف إختلافاً كلياً مقارنة مع باقي العرب ، ولدينا حنين جارف لبلدنا ، وربما لأن قرب باقي العرب من اوربا خصوصاً الموجودون على حوض البحر الابيض المتوسط ، ساعدهم على التكيف مع الحياة الاوربية . أما بالنسبة لنا فان اوربا بعيدة ، ونحن عشنا في عزلة في أطراف العالم العربي .

داخل الإذاعة

حين التحقت بعملي في هيئة الإذاعة البريطانية ، وجدت كذلك صعوبة في التأقلم ، لأن الحياة داخل (البي بي سي) مختلفة تماما ، إذ يوجد هنا أجناس من شتى بقاع الارض والاذاعة تذيع باكثر من خمسين لغة . وعلى رغم بطئي في التأقلم ،و لكن ، حين ابدأ عملية الاندماج في الوسط الذي أعيش فيه أقطع الاشواط بسرعة .

في مقر هيئة الاذاعة البريطانية في بوش هوس (Bush house) سأتعرف لأول مرة على عرب آخرين ، وعلى وجه التحديد قابلت للمرة الأولى فلسطينيين ، ومنهم تعرفت على تفاصيل القضية الفلسطينية . كان الفلسطينيون الذين يعملون في هيئة الإذاعة البريطانية من الموهوبين ، منهم الاستاذ حسن الكرمي وهو رجل عالم ، وكان هناك منير شما ومعاوية الدرهلي وموسى السعودي ، ونصرت فضة ، ومحمد البيبي .

كما التقيت آخرين من جنسيات مختلفة ، من افريقيا وامريكا اللاتينية واوروبا الشرقية .

كانت (البي بي سي) مدرسة حقيقية ومؤسسة عظيمة رغم كل ما يقال ، وهناك سأتعلم مهنة جديدة وهي الإذاعة .

في تلك الفترة بدأت اتعرف على التيارات السياسية ، سواء تلك التي كانت سائدة في العالم العربي أو في انجلترا . وساعدني على ذلك أن اساتذتنا في الثانوية والجامعة كانوا من الانجليز وقد تلقينا منهم دروساً ممتازة . وقبل أن أجيء الى لندن كنت شخصياً اعرف جيداً تاريخ بريطانيا ، لذلك حين بدأت في قراءة الصحف والكتب وحضور المحاضرات ، أضحى سهلاً بالنسبة لي الالمام بتفاصيل الحياة السياسية .

حين جئت لندن تولى المحافظون الحكم ، بعد حكومة العمال التي انتخبت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية والتي قامت بادخال تغييرات كبيرة ، فقد انشأ العمال دولة شبه اشتراكية ، اطلق عليها الانجليز دولة الرفاهية (Welfare State) . ورغم عودة المحافظين الى الحكم فانهم تمسكوا بالتغيرات الجوهرية التي قام بها العمال

مثل قضية التأمين الصحي ، وحقوق التقاعد ، وتحسين وضعية العمال وما إلى ذلك . كان هناك ماسمّوه بالاجماع الوطني بين الحزبين الكبيرين حول القضايا الكبرى .

بعد الاطلاع على ماجريات الحياة السياسية في انجلترا ، وجدت نفسي اميل للاشتراكية العمالية ، وقرأت كثيرا عن الفابيين ، وكانت مدرسة لندن للاقتصاد (London school of Econmics)التي أنشأها العمال توجد قرب مقر هيئة الاذاعة البريطانية وتابعت محاضرات في تلك المدرسة (الجامعة) التي كانت تمثل الفكر الاشتراكي ودرست هناك العلوم السياسية . كان يحاضر في المدرسة اساتذة مرموقون من مفكري ومنظري حزب العمال ، مثل البروفسور هارولد لاسكي .

ومع أجواء هيئة الاذاعة البريطانية ومدرسة لندن للاقتصاد ، بدأت أتأقلم مع حياة الانجليز ، رغم انني عانيت في السنتين الاولين .

كان من بين ضرورات التأقلم ان يتخذ الشخص صديقة GIRL FRIEND ، وذلك لمساعدته في الاندماج والتعرف على البلد . لان النظام الرجالي المتبع لدينا لم يكن مألوفاً للانجليز ، فاذا اردت الذهاب الى السينما او المسرح أو المطعم ، لابد ان تذهب مع صديقتك .

كنت ميالا للمسرح ، وتعرفت جيداً خلال تلك الفترة على المسرح الانجليزي ، خاصة مسرح شكسبير وشاهدت جميع مسرحياته . وربما لان اهتماماتي كانت ادبية لذلك اخترت المسرح لتمضية أوقات الفراغ ، ورغم اننا قرأنا شكسبير اثناء الدراسة في السودان ، لكن لم نكن نعرفه بعمق كما حدث لاحقاً .

كان الذين يمثلون في تلك المسرحيات ، من الممثلين الكبار ، مثل لورنس اوليفيه وجون قليقود . . . ولم تقتصر متابعاتي المسرحية على مسرح شكسبير ، بل ترددت كذلك على مسرحيات تشيكوف الروسية ، ومسرح برخت الألماني ومسرح جان آنوي الفرنسي.

وفي تلك الفترة قرأت كتباً كثيرة ، في الادب والفن والتاريخ والاجتماع ، فقد كانت لندن مركزاً ثقافياً مشعاً .

الكويكرز وأشياء أخرى

ورغم حالة الاندماج التدريجي في المجتمع ، فإن الاحساس بالغربة والوحدة ظل يلازمني وأتذكر أنني كتبت لأحد أساتذتي الانجليز ألتمس النصح ، فقدمني بدوره لمستر هتشكن Hodgkin وقد كان عميداً لمعهد بخت الرضا وعبره تعرفت على أحد أندية الكويكرز .

أعضاء أندية الكويكرز من أطيب البشر ومعروف عنهم أخلاقهم الفاضلة وهم يعتنقون مذهبا مسيحياً قريباً جداً من الاسلام لانهم وحدانيون وليس لديهم كنيسة . وكانت عائلة هتشكن ، وهي عائلة محترمة جداً ، من جماعة الكويكرز وابن عم هتشكن يدعى توماس هتشكن ، وهو استاذ في اكسفورد وزوجته عالمة حصلت على جائزة نوبل . . . وكانوا اصدقاء للسودان والسودانيين ويحبون أهله كثيراً ، وأظن أن المرحوم جمال محمد احمد هو الذي عرفهم بالسودان . والمؤكد أن جمال محمد أحمد قد أسدى خدمات جليلة لبلاده عن طريق العلاقات الثقافية ، وقد عاصرته حين كان سفيراً في لندن ، وكنت قد درست عليه في مدرسة وادي سيدنا وفي جامعة الخرطوم حيث كان مسؤولاً عن شؤون الطلاب . ومثل جمال محمد احمد فعل كذلك محمد عمر بشير - رحمه الله - هؤلاء النفر كانوا يعملون بوعي ، وربطوا علاقات وطيدة مع الانجليز ، الذين كانوا آنذاك حديثي عهد بالسودان ، ولديهم اهتمام واسع بقضاياه . وأذكر من هؤلاء الانجليز مستر هولت ، وهو استاذ تاريخ كبير أصبح فيما بعد بروفسور في جامعة أكسفورد ، وقد سبق له أن عمل أستاذا في مدرسة حنتوب الثانوية ، وهناك ايضاً مستر قريفث ، الذي كان عميداً لمعهد التربية بخت الرضا واستاذاً في اكسفورد حين عاد الي بريطانيا ، وقد عرفني عليه جمال محمد احمد . ومن هؤلاء أيضاً مستر براون ناظر مدرسة حنتوب الثانوية . وهناك موظفون عملوا في السودان واصبحوا بعد ذلك سفراء في وزارة الخارجية البريطانية ونواباً في البرلمان ، لكن عدد الانجليز الذين يعرفون السودان معرفة وثيقة قلّ حالياً . . . واصبح السودان مثله مثل أي بلد آخر في افريقيا والعالم الثالث ، ولم يعد يحظى بالاهتمام الذي كان له في الخمسينات والستينات ، ولا ينظر إليه الانجليز بود كما كان الشأن في السابق .

اعتدت التردد على نادي الكويكرز وقابلت فيه اناساً مهمين ، وهو ما فتح لي آفاقاً جديدة .

كان يتردد على النادي كتاب كبار ، وسياسيون يحاضرون حول مواضيع شتى . واحيانا تقدم بعض الفرق الموسيقية عروضاً فنية جميلة . ومن مبادئ الكويكرز عدم التدخل في عقائد الاخرين .

وكان ترددي على نادي الكويكرز ، بداية اندماج حقيقي في مجتمع الانجليز . وربما تأقلمت أكثر مما ينبغي ، ووجدت نفسي مندفعاً في هذا الاتجاه . وساعدني صديقي صلاح احمد محمد صالح كثيراً على ذلك .

في هذه الفترة كنت أتردد على السودان ، وفي بعض الاحيان وخلال ساعات كنت أطير من لندن الى الخرطوم ، ومن هناك بالطائرة الى الدبة لانهم أنشأوا فيها مطاراً بعد الاستقلال لاجد نفسي وسط اهلي وعشيرتي ، أعيش بينهم أياماً تختلف إختلافا كلياً عن أيامي في لندن . ثم ما ألبث أن أعود الى حياتي المعتادة وسط مجتمع الانجليز . . .

أصبحت البيئة الإنجليزية تؤثر عليّ بالتدريج ، وهي بيئة لا تنسيك كل شيء ، ولكنك تجد نفسك مضطراً لذلك . وفي صراع الانسان مع الحياة وظروفها ليست امامه خيارات كثيرة ، فاما ان يقبل البيئة التي يعيش فيها أو يتركها وإلا فإنه سيتعب نفسياً وذهنياً . كان هناك بعض السودانيين يأتون الى لندن للدراسة او العمل ، لكن سرعان ما يعودون أدراجهم لانهم لم يستطيعوا التأقلم مع البيئة .ومن بين هؤلاء بعض الاطباء الذين كان يتم ايفادهم لتحضير الزمالة ، يأتون وهم كبار في السن وبعضهم لا يحتمل الغربة والبيئة الانجليزية ، فيواجهون كثيراً من المتاعب وأتذكر أن أحد الأطباء جاء الى لندن في السنة نفسها التي جئت فيها ، وكان يتأمل منظر الثلج والجليد ويبكي حسرة وشوقاً للسودان ، ولم يلبث أن عاد بعد أن مكث بضعة أشهر فقط .

وقد يكون إندماجي في البيئة هو الذي أطال اقامتي في لندن ، وربما لأنني تزوجت من هذا المجتمع .

بقيت في لندن منذ عام 1953 ، ولم أعد للسودان لاول مرة في عطلة إلا في عام 1956 ، كنت أحاول دائما أن لا أنقطع عن جذوري . بل انني حاولت اكثر من مرة العودة بكيفية نهائية للاستقرار في السودان . وما جعلني أعدل عن هذه الفكرة ، هو أنني كلما عدت وجدت أن البلد تسير نحو الأسوأ . وثمة مسألة اخرى وهي أن العودة إلى حياتي الاجتماعية في السودان كان أمرها سهلاً ، لكن العودة إلى الوظيفة الحكومية كان مسألة صعبة ، لان دفعتي وجيلي كانا قد سبقاني باشواط . ثم أنني بدأت استنشق مناخ الحرية في لندن . . . وهذا ما تربيت عليه ، خاصة ان السنوات التي امضيتها مع اهلي في مجتمع القرية ، كنت احس خلالها بالحرية في أن أقول أو أفعل ما أشاء .

وفي لندن أعجبني مناخ الحريّة والأنفتاح . ثم انني عملت في هيئة الإذاعة البريطانية وهي مؤسسة منظمة جداً . وقد ترقيت الى رئيس قسم وكان لي من العمر 29 عاماً ، وبهذه الصفة كنت أحضر إجتماعات رؤساء الأقسام ، ووجدت أن الرأي الذي أقوله يتم الإستماع إليه باحترام وتقدير ، مثل ما يتم الاستماع لرأي رئيس قسم آخر عمره اكثر من خمسين عاماً . و لم يكن هناك فرق بين رئيس قسم وآخر ، سواء كان انجليزياً أو أجنبياً .

هذا المناخ من الحرية في التعاطي مع الاشياء ، أثر علي كثيراً ، خاصة وان لدينا في السودان ميلاً واضحاً وانجذاباً شديداً لمناخ الحرية . ولعل تأثير ذلك بات واضحاً في سلوكي وفي طريقة تعبيري عن رأيي . و أسلوبي في التعبير عن نفسي ليس عدوانياً ، لكن في حدود الذوق والأدب ، إذا كان لدي رأي أجاهر بقوله دون تردد ، ربما لانني تعودت الصراحة .

كان لدي اسلوب خاص في التعامل ، فقد كنت أميل الى الهدوء في تصرفاتي ، وأعتمد على طول البال ، وبعض الناس كانوا يظنون أن الهدوء والاعصاب الباردة تتيح امكانية تمرير الاشياء ، لكن كنت حين أؤمن بشيء ما ، اقوم فجأة بإحداث مواجهة ، أختار الموضوع والمعركة واستمر فيهما دون كلل إلى أن أصل بالأمور الى حدها الاقصى .

كنت افضل دخول معارك مع اناس اكبر مني وظيفياً ، وليس مع الصغار . . .

كاداري او مسؤول كبير ، وحين يسمع الناس الصغار الحكاية يعبرون عن تعجبهم ودهشتهم ، فكان يقال انني دخلت معركة مع فلان . . . وهذا دليل على انني لست سهلاً في التعامل .

طرحت دائماً على نفسي سؤالاً أساسياً : هل الكاتب او المبدع يصلح للعمل الاداري؟ وهو سؤال وجيه لان الابداع او الفن ينطلق من الجزء الفوضوي في البشر ، في حين ان الادارة هي فن التنظيم .

عرب لندن

بعد عودة صلاح احمد محمد صالح الى السودان ، سكنت مع صديق مصري عزيز جداً ، هو الاخ عبدالرحيم الرفاعي . فقد استأجرنا شقة واقمنا فيها سوياً . والمصريون عموما اقدر منا في شوون الحياة . في السودان على سبيل المثال من المعيب ان يدخل الشخص المطبخ لطهو أكله . . . وقد تعلمت من عبدالرحيم الرفاعي ذلك ، فهو يجيد الطبخ ، وتعلمت منه الى حد ما كيف أطبخ ، حتى اذا وجدت نفسي وحيداً استطيع ان اتدبر أمري .

ثم أنني استفدت منه استفادة كبيرة في التعرف على مصر والمصريين ، لانني لم ازر مصر لأول مرة الا في عام 1960 ، فقد تعلمت منه اللهجة والعادات المصرية ، وحب الزجل بالعامية المصرية .

بعد ذلك تعرفت على مصريين آخرين منهم رجل اعتبره من أساتذتي رغم أنني لم أدرس عليه ، وهو الدكتور محمد عبده عزام رحمه الله . كان من أوائل خريجي كلية الاداب في جامعة القاهرة ، ودرس على يد طه حسين ، وهو رجل عالم واديب ومعروف في الحقل الاكاديمي ، وهو الذي حقق ديوان ابي تمام ، فقد كان عالماً لغوياً كبيراً ، يتمتع بروح طيبة . جاء دكتور عزام الى لندن ليدرِّس في جامعاتها ، وكنا نزوره في بيته ، ومعه زوجته التي اطلقنا عليها ماما هانم ، تعد لنا أكلات شهية . وتعلمت منهما أشياء كثيرة .

ثمة مفارقة غريبة في هذا الوضع ، وهو ان يذهب عربي الى لندن للتعرف على العالم العربي ، مثل ما حدث لي . سوداني يتعرف على المصريين في لندن وليس القاهرة . ولا ادري ماهي دلالات ذلك ؟

ثم كان يجيء الى لندن ممثلون وممثلات ، مثل يوسف وهبي وعباس فارس وامينة رزق ، واختلطت بهؤلاء رغم أنني لم أكن قبل ذلك أهتم كثيرا بأمور الفن ، وخلال هذه المرحلة تعرفت على الآداب والفنون وبعد ذلك أصبحتُ كاتباً !

كان يبدو لي ان هذا الامر يتسم بالغرابة . . . ان يجيء انسان الى لندن وهو ينتمي انتماءاً عميقاً لبيئته المحلية . . . ثم يتغرب سنوات طويلة ، ويتزوج . . . هذه كلها امور لم تكن تخطر على البال .

ورغم كل ذلك مازلت اعتقد انه ربما كان من الافضل لي لو لم اغادر السودان ويبدو لي أنني كنت سأعيش مرتاحاً . لكن خيار البقاء في السودان حتى ولو لم آت الى لندن لم يكن مؤكداً ، فقد ازداد ت الاوضاع في السودان تدهوراً لذلك ربما كنت سأضطر للهجرة الى دول الخليج بحثا عن الرزق كما فعل كثير من السودانيين . وفي كل الاحوال لو كنت بقيت في السودان لما كنت قد تعرضت للهزات الكثيرة التي جاءت نتيجة التأقلم والتعايش مع عالم مختلف تماماً . رغم انها من نواحي أخرى كانت حياة أخصب وأكثر عمقاً .

لابد أن أقر ان تجربة الغربة كانت مهمة جداً . لان الناس الذين لم يخرجوا من السودان ، او خرجوا منه وعاشوا في اجواء سودانية ، قد لا يعرفون ماذا يعني ان تعيش وسط مجتمع غريب . . . داخل غرفة من اربعة جدران ، وفي عز الشتاء ليس لك أنيس سوى مدفأة غاز متواضعة ينبعث منها لسان صغير من اللهب . ولا تحس باي دفء حقيقي ، وتضطر لان تتكوم فوق سريرك ، واذا خرجت من الغرفة قد تصطك اسنانك من برد قاتل ، واظن ان هذا الزمهرير الداخلي الذي أحسسته ظهر واضحاً في رواية «موسم الهجرة الى الشمال» .

كما ان هؤلاء الذين لم يخرجوا من السودان ، لم يعرفوا ان العلاقة مع الجيران تكاد تكون معدومة ، لان جارك في مدينة مثل لندن ، لا يهمه أمرك ، جائز جدا وانت خارج في الصباح أن تقول له «صباح الخير» ، قد يجيبك . وقد لا يجيبك .

حياة العزلة هذه ، مغايرة تماما لحياة العشيرة التي نشأنا وتربينا فيها .

ثم ان الغربة تعودك الاعتماد على النفس ، فليس لديك أقارب أو أهل تشاورهم في أمرك أو يساعدونك .

وقد تكتشف قوة داخلية في نفسك نتيجة هذا الوضع ، لانك تواجه الحياة وحدك .

كان هناك اصدقاء سودانيون – وإلى حد ما- كنا نسعى للتكاتف لكن البلد واسعة ، والناس تسكن في اماكن متباعدة . رغم انني سكنت في منطقة يوجد بها نسبياً عدد كبير من السودانيين .

وخلال عملي رفضت كثيراً من الوظائف السياسية التي عرضت عليّ في السودان . كنت قد ترقيت ،كما اسلفت ، الى وظيفة رئيس قسم ، وهي وظيفة كبيرة جداً بمقاييس تلك الفترة . ورغم ذلك انتقلت لأعمل في قطر في وظيفة مدير اعلام ، وهي أيضاً كانت وظيفة كبيرة جداً . وفي الحالتين كان هناك قدر كاف من التجرد .

ويبدو لي انني لو عملت في السودان في وظيفة وزير أو وكيل وزارة لدخلت بحمولة عقلية وعاطفية مختلفة ، لذلك رفضت الوظائف السياسية .

والمؤكد أن طبعي وأسلوب تفكيري لا تناسبه المواقع التي في الصدارة ، إذ أنني أسعى دائما للابتعاد عن الصدارة ، حتى حين يجلس الناس حول مائدة الاكل ، لا أفضل أن أكون في الصدارة . . . لان الابتعاد او الانزواء يمنحك حرية كاملة . . . حرية ان تدخل او تخرج متى تشاء او حتى تراقب الاشياء من بعد كاف وهو ما يناسبني تماماً .

كنت أعتقد أن الوظيفة السياسية تعني الالتزام الكامل لحزب ما أو وجهة نظر ما . وفي هيئة الاذاعة البريطانية لم تكن الادارة صعبة ، لان الرؤساء من فئة مستنيرة جداً ، والمناخ السائد مناخ ديمقراطي ، والكل يعمل من أجل الافضل .

وحين يتولى أحدهم مسؤولية ادارية ، فان هاجسه الوحيد يكمن في كيفية الحصول من العاملين معه على أفضل ما لديهم . كان هذا الوضع يروقني جداً .

كان التعيين في وظيفة ما لا يتم الا بعد تمحيص شديد . وبعد ان يقتنعوا بكفاءتك ومؤهلاتك لشغل الوظيفة ، ليس لانك قريب فلان من الناس ، أو أن احداً يدعمك» .

الفصل الرابع

مدن على الطريق

أثناء عمله في هيئة الاذاعة البريطانية ، وبعد أن انتقل الى اليونسكو كمستشار ، جاب الطيب صالح العالم العربي مشرقاً ومغرباً ، وزار الدول العربية جميعاً بدون استثناء ، بيد أنه ظل مشدودا لثلاث عواصم . . . وهي دون ترتيب . . . القاهرة ، بيروت ، والدوحة .

وتأثير هذه العواصم الثلاث يبدو جلياً حين يتحدث الطيب صالح عن العالم العربي . . . والواضح ان له في كل واحدة من هذه العواصم ذكريات خاصة ، ولحظات واياماً استقرت في وجدانه وذاكرته . وقد تختلف رؤيته لهذه العواصم عن رؤية الآخرين ، لأن الطيب صالح عاش في الغرب ، وهناك تعرف على العرب ،

وحين جاء إلى المنطقة يجوبها في مناسبات مختلفة ، كان ولاشك لديه تصورات ورؤى مغايرة .

المؤكد أنه جاء إلى هذه المدن بحمولة فكرية مغايرة أيضاً ، وبشحنة عاطفية مختلفة ، وبمشاعر ربما تكون متناقضة ، لكن هذا لا يعنى أن صداقاته وعلاقاته في العالم العربي كانت وقفاً على العواصم الثلاث . . .

فهو يتذكر جيداً أصدقاء له من موريتانيا ، ويحدثك احيانا عن ذكريات في مقديشو . . .

وليس بالضرورة ان العواصم الثلاث هي أحب المدن العربية الى نفسه ، أو أكثرها إيثاراً لديه مقارنة مع غيرها . فمازلت اتذكر كيف كان يحدثني عن اعجابه الشديد بمدينة مراكش فقد قال لي مرة : «مراكش أجمل بلاد الدنيا ، حين أزورها أحس أنني في أمدرمان كما عرفتها» . ويستطرد : «هذه مدينة تعرف تمازجاً باهراً للثقافات . ثقافة المدينة مع ثقافة الصحراء . واختلاط العروبة بالزنوجية بالبربرية» .

لكن الثابت أن العواصم الثلاث علامات لها خصوصيتها في درب الطيب صالح . . . وفي هذا الفصل وقفات وذكريات عن هذه العواصم . . . وكذا عن مدينة اصيلة المغربية التي كانت اول مدينة في العالم العربي تكرم الطيب صالح عام 1994 ، واختارت يومئذ شعاراً لذلك التكريم يقول (الطيب صالح : الإنسان والرمز) لنستمع للطيب صالحً يتحدث عن هذه المدن .

الدوحة

«أمضيت في قطر سبع سنوات ، وشكلت تلك الفترة محطة مهمة جداً في حياتي . عملت في الدوحة مديراً لوزارة الإعلام القطرية ، ثم مستشاراً لوزير الإعلام بعد أن عينوا وكيلا قطريا للوزارة . لعلني كنت محظوظا فقد عملت مع عيسى غانم الكواري ، وكان شخصًا دمثًا لطيفًا ومن أميز الذين عملت معهم . كان عيسى الكواري إلى جانب منصبه كوزير للاعلام ، يعمل أيضا مديراً لمكتب أمير دولة قطر[1] ، وكان الأمير يولي الاعلام اهتماماً خاصاً . وعيسى الكواري رجل متعلم ومستنير ، ونشأت بيننا مودة واحترام متبادل وتجاوب .

(1) كان أمير قطر أنذاك هو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني .

وأهمية قطر في حياتي أنني عاشرت خلال إقامتي هناك جميع الجنسيات العربية والآسيوية والأوروبية .

اتبعت أسلوبًا خاصًا في التعامل مع الناس في قطر ، إذ أنني أعتمد دائما احترام الناس واحترام مقدرات كل شخص ، ومحاولة الاستفادة من إمكانياته الى أقصى حد . . . وهذا الأمر يحتاج إلى طول البال . . .

في بداية عملي في وزارة الاعلام حرصت على عقد اجتماع اسبوعي لمدراء الاقسام ، ولم يكن الأمر سهلاً ، لأن العمل الجماعي ليس مألوفا في العالم العربي . وما أعنيه بالعمل الجماعي ، هو ذلك الذي يتم دون قهر او توجيهات ملزمة سواء كانت صحيحة أم خاطئة ، لأنه في هذه الحالة سيعمل المرؤوس العمل الذي يرغب فيه رئيسه لكن دون إقتناع ، لأنك في أغلب الأحيان تكون قد جرحت كرامته ، وحين يحس أن الشخص الذي يراقب عمله غير موجود فإنه لن يعمل . وفوق ذلك فإن السعي لتوليد طاقة ذاتية لدى الناس قابلة للاستمرار أمر في غاية الأهمية .

بعد مضي فترة على عملي داخل الوزارة حدث تفاعل واحترام بيني وبين العاملين فيها . . . رغم أن الأمر كان صعباً في البداية ، لأن مجرد حضور كبار الموظفين لاجتماع يدوم ساعتين يقولون خلاله ما يودون قوله وبحرية ، لم يكن أمراً سهلاً . وإذا كنت قد نجحت في شيء ، فهو قدرتي على التأليف بين عناصر متنافرة ، ومحاولة إخراج أفضل ما لديهم من أجل المصلحة العامة .

وأقول الآن أنني استفدت كثيرا في قطر ، وأعتقد أن ذهابي إلى هناك كان بمثابة مخرج لي ، لأنه حين عرض علي المنصب كنت بالفعل قد بدأت أحس بالملل في لندن . والأمر كله – كما هي مسيرة حياتي– تم بالصدفة .

كنت أعمل في هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) ، فاتصل بي الشيخ أحمد بن سيف آل ثاني سفير قطر في لندن – الذي سيتولى لاحقاً أكثر من منصب وزاري وقد أصبحنا فيما بعد أصدقاء– واستدعاني إلى مكتبه من أجل التعارف . وخلال المقابلة أبلغني أن عيسى الكواري وزير الاعلام يرغب في مقابلتي في قطر . واستفسرته عن السبب ، فقال لي أن الوزارة تود أن تعرض علي منصب مدير وزارة

الاعلام . كان يشغل هذا المنصب رجل ممتاز ، وهو محمود الشريف وأصبح لاحقاً رئيساً لتحرير صحيفة الدستور الاردنية . ثم وزيراً للاعلام في الأردن . ودون أن أفكر في الأمر عبرت للسفير عن موافقتي . وفي عطلة نهاية الأسبوع قررت السفر إلى قطر حتى دون أن أخطر إدارة هيئة الإذاعة البريطانية . سافرت من لندن الى لبنان وأمضيت ليلة مع صديقي صلاح أحمد محمد صالح وكان سفيرا آنذاك للسودان في بيروت . وسألني عن سبب زيارتي لقطر ، فقلت له أنني ذاهب إلى هناك لأقابل المسؤولين القطريين .

وصلت إلى الدوحة ورُتب لي موعد مع عيسى غانم الكواري ، وقد ألفته من أول وهلة ، ولعل تلك من طبائعي إذ أنني لا أحسن العمل مع شخص لا أحبه وهذه أمور لا أعرف أسبابها . حين عرض علي المنصب ، كان جوابي : على بركة الله . . . حتى الراتب لم أتحدث عنه . . . لكنني طلبت أن أعمل في قطر كمنتدب من هيئة الاذاعة البريطانية . ولعل إلحاحي على مسألة الانتداب مرده الى أنني أحبذ دائما عدم الالتزام الكامل . . . وفي الوقت نفسه الابقاء على جميع الجسور .

قبل عيسى غانم الكواري اقتراحي ، وطلبوا من هيئة الاذاعة البريطانية انتدابي فوافقوا .

سهل علي عيسى الكواري ، الأمر إلى أقصى حد ، وأحببت العمل معه ، وخلال ذلك قابلت أمير قطر عدة مرات ، ووجدته كذلك إنساناً لطيفاً وذكياً ورجل دولة حقيقي .

كانت حياتي في قطر هادئة ورائقة ، خاصة أن أسرتي معي ، وبناتي آنذاك صغيرات فأدخلتهن مدرسة انجليزية ممتازة . كانت الحياة سهلة واكتسبنا صداقات طيبة . ووجدت في قطر وضعاً يناسبني تماماً ويتلاءم مع طباعي .

لم يكن مطلوبًا مني إعلان الولاء لأحد ، لكنني بتلقائية أحببت البلد وأهله ومنحتهم ولائي . . . . ولم يكن التطبيل والمدح يروق القطريين . . . لذلك وجدت نفسي في وضع مريح ، وأمضيت هناك فترة مفيدة ومثمرة جداً .

جئت إلى قطر عام 1974 ، أي في بداية ما يعرف بسنوات الطفرة النفطية ، ومنطقة الخليج تعرف آنذاك تحولاً سريعاً ومتلاحقاً . عشت هناك مرحلة البناء والنمو

والازدهار الاقتصادي ، وتجولت وسافرت كثيرا في تلك الفترة وانا مدين للحكومة القطرية بأشياء كثيرة منها انهم أتاحوا لي التعرف على العالم . . . سافرت إلى الهند وتايلند واستراليا واليابان ومعظم دول أوربا ، وربما لو لم أعمل في قطر ما كان لتتاح لي هذه الفرصة في التجوال . وأهل قطر لهم أيادي بيضاء كثيرة ، ولا أقول ذلك مجاملة ، فقد قاموا نيابة عن العالم العربي بانجازات مهمة لم يعلنوا عنها ، من ذلك أنهم اعدوا دراسة كُلفت بها مع الأخ محمود الشريف لإنشاء مؤسسة إعلامية تعمل في المجال الإعلامي والفكري والثقافي في الخارج لمحاولة إعطاء صورة حقيقية عن العالم العربي . . . خاصة أن صورة العالم العربي كانت ولاتزال سلبية أن لم نقل سيئة في أوربا وأمريكا .

وصرف القطريون أموالا كبيرة على هذه الفكرة ، وأبدى أمير قطر استعداداً للتبرع للمشروع من ماله الخاص . . . لكن لسوء الحظ تدخل آخرون وأجهضوا الفكرة . . . كما أن القطريين ساهموا في عملية التنمية في العالم العربي في صمت ودون ضجيج .

وقطر كما يقول الانجليز STATE BUFFER - اي دولة عازلة بين دول - والقطريون لم تكن لهم طموحات اقليمية لأن بلدهم صغير وعدد سكانه محدود ، لذلك كانوا يعملون في هدوء ودون ادعاءات .

و أستطيع القول أن السنوات التي أمضيتها في قطر كانت حافلة بالعطاء والحيوية والنشاط . فقد تكيفت مع أهل البلد وانسجمت معهم . . .

وبعد سنوات طيبة في الدوحة . . . غادرت قطر لالتحق بمنظمة اليونسكو .

بيروت

زرت بيروت لأول مرةعام 1958 . كان لهيئة الإذاعة البريطانية مكتب في العاصمة اللبنانية ، لتغطية منطقة الشرق الاوسط . وكنت أتردد على هذا المكتب لفترات تتراوح ما بين ثلاثة أشهر وسنة كاملة . وأعتقد أن بيروت كان لها أثر واضح على مسيرتي الأدبية .

ومن خلال ترددي على مكتب هيئة الإذاعة البريطانية تعرفت على بيروت وعلى لبنان واللبنانيين .

اللبنانيون أناس منفتحون على الآخرين ، ويحتفون بالمواهب ، ولديهم قدرة خارقة على التفاعل .

في بيروت تعرفت على المرحوم يوسف الخال ، وأعتقد أن يوسف الخال ظُلم كثيراً ، فقد وجهت له انتقادات شديدة ، واتهم بأنه رجعي وموال للغرب . وفي اعتقادي انه كان رجلاً شريفاً ، ولديه قدرة الاحتفاء بالناس ورعاية المواهب . وأظن أنه كان وراء إبراز مواهب عديدة ، منهم الشاعر ادونيس ، عن طريق مجلة شعر .

كان الخال عربياً أصيلاً . . . شيخ عرب ، داره مفتوحة للجميع ، يؤمن وبإخلاص بضرورة التحاور مع الثقافة الغربية ، ربما لأنه عاش في أمريكا . . . وهو أعتقد اعتقاداً جازماً أن أمريكا يمكن أن تكون مفيدة للعرب . . . أما انه كان عميلاً للمخابرات الأمريكية فهذا سُخف .

ثم انني لا أفهم لماذا يريد الناس في العالم العربي ، أن يكونوا نسخة من بعضهم ، فإذا أحب أحد الأمريكيين ، وفي الوقت نفسه كان مخلصاً لعروبته فماذا يضير ذلك .؟ ولا أفهم لماذا نوزّع تهم الخيانة هكذا . . . بمجرد أن شخصاً ما انفتح على جهة ما . ثم ان دمغ الناس بالتهم أمر مخيف ، لأن هذا يعني ببساطة عجزنا عن صهر هذه الروافد في بوتقة واحدة . وأعتقد أن التجانس الحضاري يكمن في المقام الأول في هذه الفكرة اي فكرة الروافد التي تصب في النهاية في مصب واحد .

احتفى بي يوسف الخال . . . احتفاءً خاصاً . وكنت أحضر الاجتماعات التي تنظم في داره ، إلى جانب ادونيس ومحمد الماغوط وانسى الحاج وابو شقراء هذه المجموعة كانت لديها طموحات كبيرة ، إذ اعتقدوا أنهم سيحدثون ثورة في الشعر العربي . . . وكان رأيي أنهم سيرفدون الشعر العربي برافد صغير . وفي رأيي أن هذه المجموعة كانت تنتقد الادب والتراث العربي لأنها لم تستوعبه كما يجب ، وأظن أنهم لم يقرأوا جيداً الشعر الجاهلي أو شعر المتنبي وابي تمام وابي نواس . وربما

تأثروا ببعض المدارس الفرنسية او الانجليزية . . . في حين كان يوسف الخال عكسهم ، لذلك حين نطالع ديوانه (قصائد في الاربعين) سنجد فيها متانة الشعر العربي القديم . أما آلآخرون فكانوا يكتبون شعراً أقرب إلى الأشعار المترجمة .

بالنسبة لأدونيس حدث له تحول بعد ذلك ، فقد قرأ الشعر العربي جيداً واستوعبه ، لذلك جاءت كتاباته مختلفة تماماً .

حين أقول أنني مدين للبنانيين بالكثير ، وخاصة ليوسف الخال فمرد ذلك أن أولى محاولاتي الادبية نشرت في مجلة كان يصدرها بعنوان «ادب» ولم تعمر طويلاً . . . في تلك المجلة نشرت قصة قصيرة ضمنتها فيما بعد في مجموعة دومة وحامد ، وكانت بعنوان «هكذا ياسادتي» . . . هذه القصة في الواقع جاءت وكأنها إسكتش « لموسم الهجرة الى الشمال . . . .»

لم يكن يوسف الخال ناشراً ورئيس تحرير فقط ، بل كان مؤثراً فى وسطه ، فقد دأب على مناقشة الكتاب والشعراء حول ما يكتبونه في الاصدارات التي أصدرها .

وفي بيروت وجهت لي لأول مرة دعوة لالقاء محاضرة في الجامعة الأمريكية واظن أن ذلك كان فى عام 1980 ، وكانت الجامعة الأمريكية أول جامعة في العالم العربي توجه لي دعوة لالقاء محاضرة ، حتى قبل جامعة الخرطوم . . وهناك تعرفت على الدكتورة منى تقي الدين اميوني ، وقد احتفت بي احتفاء كبيراً . كان والدها يعمل سفيراً وهو ايضاً كاتب ، واحبت السودان بشغف وأسعدني أن ذلك تم عن طريقي .

أحببت اللبنانيين حباً خالصاً ، وأعتقد أن الرأي الشائع الذي يقول أن اللبنانيين هاجسهم المصلحة المادية هو افتراء محض .

اللبنانيون يميلون الى التجارة والعمل والسياحة ، لكنهم يمنحون خدمة مقابل ما يأخذونه ، وهذا شيء طبيعي . ثم ان اللبناني قد يتعب النهار كله ويشقى ليكسب مالاً ، لكنه على استعداد أن ينفق كل ما كسبه في آخر الليل لاستضافة أحد أصدقائه أو معارفه . واعتقد انه لولا روح الكرم والشهامة المتجذرة في اللبنانيين ولولا انسانيتهم العميقة ، لمكان لبنان قد تفتت بسبب التجربة القاسية التي مر بها .

والمدهش انني وجدت نقاط التقاء بين لبنان والسودان ، رغم بعدهما الجغرافي ، هناك اشياء كثيرة مشتركة . . . ودون مبالغة يمكن أن أقول أن السودان ولبنان وجهان لعملة واحدة . . . لقد وجدت في الشعر العامي اللبناني اوجه شبه شديدة مع زجل واشعار قبيلة الشايقية في شمال السودان . وفي تقديري المتواضع ان غناء فيروز وموسيقى الرحابنة هي الامتداد الاصيل لموسيقى سيد درويش . . . فقد احدث سيد درويش ثورة في الغناء المصري لم تستمر ، في مواجهة الطابع البورجوازي لغناء وموسيقى محمد عبدالوهاب مع احترامي له ولصوته الجميل ، لكن في نهاية الأمر موسيقى عبدالوهاب ليست هي الامتداد الحقيقي لسيد درويش . وإذا تأملنا أغاني فيروز ووديع الصافي نجد أن مشاعر الحب والعواطف مستلهمة من حياة الناس . والغناء اللبناني بسيط ودافئ وفيه صدق وحرارة الواقع . فحين تسمع أغنية تتحدث عن البنت التي تنتظر الولد عند مفترق الطرق ، أو عندما ينتظرها العشيق قرب البئر ، هذه الصور تذكرني بصور غنائية موجودة لدينا في البيئة السودانية . عندنا أيضا البنات يذهبن الى البئر وهناك يلتقين ، الفتيان . لذلك وجدت نقاط التقاء كثيرة تحت هذا السطح الذي يبدو متناثراً وبعيداً بين لبنان والسودان .

لقد تعلمت أشياء كثيرة في بيروت واكتسبت اصدقاء كثر .

القاهرة

أعتقد أن علاقتنا مع مصر أعمق بكثير مما يدركه الآخرون . ربما نحب بلاداً أخرى أو قد نتكيف مع بعض الشعوب ، لكن الذي بيننا وبين مصر هو الذي بيننا وبين أنفسنا . بالنسبة لنا مصر ليست بلداً آخر ، بل هي جزء من تكويننا ومزاجنا العام . وفي رأيي ان بعض المصريين – خاصة في مجال الاعلام – لا يدركون هذه الحقيقة ، فيلجأون الى تحويل الاشياء العميقة والمتجذرة والتي لا تبدو على السطح الى اكلشيهات . وهذا في واقع الأمر يقتل الحمولة العاطفية والفكرية ، تماما مثلما نبسط الأمور ونقسمها الى اصالة ومعاصرة ، هذا في رأيي تبسيط لاشياء غاية في التعقيد .

ولعلني الاحظ ان اختلاف الشعب السوداني عن الشعب المصري يكمن في ان السودانيين لا يعبرون عن عواطفهم بصراحة مثل المصريين . السوداني يعمد إلى مداراة عواطفه . ثم ان السودانيين يقفون دائما مع مصر في لحظات الشدة وأوقات الازمة . السادات حين عقد اتفاقية كامب ديفيد ، كانت أغلبية الشعب السوداني ضد الاتفاقية ، لكن حين أحس السودانيون أن مصر في مأزق وبدأت تنعزل وتهاجم بضراوة هبوا لنجدتها . وأعتقد ان غيري حين رفض اغلاق السفارة السودانية في القاهرة قام بذلك تحت تأثير مدّ شعبي عام غير مرئي وليس مجاراة للسادات . والتاريخ بيّن ان كلما كانت مصر في مأزق ، يقف السودانيون الى جانبها . وعقب هزيمة 1967 حين جاء الرئيس جمال عبدالناصر الى الخرطوم للمشاركة في مؤتمر القمة ، جاء مهموماً ومنكسراً ، لكن الشعب السوداني كما قال عبدالناصر أعاد إليه الثقة في نفسه . وحتى الآن حين نقرأ تاريخ حرب1967 نلاحظ ان هذا الامر على أهميته القصوى لا يجد اهتماما من المفكرين المصريين .

وهنا أفتح قوساً : فقد قرأت في أحد كتب محمد حسنين هيكل ، وهو كاتب أحترمه وأقدره ، حاشية تقول أن المرحوم محمد أحمد محجوب رئيس الحكومة السودانية الأسبق ، قدم خلال مؤتمر قمة عقد في المغرب ، صيغة توفيقية قبلها القادة العرب ، وكتب هيكل هامشاً يقول : (ان محجوب من اقطاب حزب الامة السوداني المناوئ لمصر ، وأنه عرف عنه حبه للحياة وبحبوحة العيش .) وفي رأيي ان الايماءات والايحاءات لم تكن منصفة للرجل ، فهي تترك انطباعاً لدى القارئ ان محجوب كان رجلاً ماجناً وزير نساء . والثابت أن محجوب لم يكن يشرب الخمر ، فقد كان يجالس أصدقاءه من السياسيين والسفراء والكتاب ، وبعضهم كان يشرب ، ولا يشاركهم ذلك . كما أنه كان رجلاً عفيفاً جداً ولم يعرف عنه إطلاقاً ميله لحياة المجون ، والجري وراء النساء .

ثم ان هيكل جاء ببيت شعر ، قال ان محجوب كان يردده دائما يفيد أن دم المصريين والسودانيين لا يمكن ابداً ان يمتزج .

شخصياً ربطتني علاقة صداقة حميمة مع محجوب ، خاصة حين جاء إلى لندن بعد انقلاب النميري ، ولم أسمعه قط يردد البيت المشار إليه .

كان محجوب لا يحب مصر حباً وهمياً بل حباً حقيقياً . وتجسد هذا الحب في اشخاص واشياء بعينها . فقد كان شغوفاً بالادب المصري ، و من اصدقائه عبدالرحمن الخميسي . وعندما يزور مصر كان كثيراً ما يجد أن الخميسي أيام الرئيس جمال عبدالناصر معتقلاً بسبب مواقفه وآرائه السياسية . وفي أكثر من مرة قال للرئيس عبدالناصر إنه لن يقبل ضيافته ولن يتناول وجبة معه ، إذا لم يتم الافراج عن الخميسي . ومن اصدقائه ايضا ، كامل الشناوي ومحمود السعدني وعلى ومصطفى امين ، ولطفي الخولي ، بل وهيكل نفسه . . . ورغم التباين والتعارض في مواقف هذه المجموعة سياسيًا ، فقد ربطت محجوب معهم صداقة متينة . ويبدو لي أن أشقاءنا في مصر لا يستوعبون قدرتنا على التنوع ، فهم يريدون منا أن نقيم علاقات اما مع الناصريين فقط او الشيوعيين أو الليبراليين . لكن نحن لدينا قدرة على استيعاب التناقضات . وقد تجسد ذلك في علاقات محمد أحمد محجوب مع مصر والمصريين . ولعله كان من الامثلة الرائعة في قدرة السودانيين على احتواء المتناقضات .

يوسف ادريس

كانت لي علاقات وصلات طيبة مع كثيرين في مصر ، ومن هؤلاء يوسف ادريس ، لقد تعرفت عليه من خلال أدبه أولاً . وحاولت ان التقيه في مصر خلال زيارة عابرة لكن ذلك لم يتيسر لي . ومن المفارقات انني تعرفت عليه في لندن . . ولعل من المصادفات كذلك انني تعرفت على كثير من الكتاب والمفكرين المصريين في لندن . حين التقيت يوسف ادريس في لندن نشأت بيننا صداقة ومودة . واعتقد ان يوسف ادريس في اعماقه كان رجلاً ريفياً وطيباً جداً . وهذا ما قد يتناقض مع بعض تصرفاته في الظاهر .

ورغم انه كان فارع الطول اشقر بعيون خضراء ، واقرب الى الاوربيين منه الى المصريين ، فإنه -كما أذكر- قال لي مرة ان جده ينحدر من السودان !!

كان ردي على هذا القول الذي اعتبرته مزحة ، بان شكله لا يوحي باية

علاقة مع السودان ، وكنت اقول له دائما على سبيل المزاح :« أنت خواجة اعتنق الاسلام» . ورغم ذلك كان يصر أنه من الادارسة الاشراف الذين جاؤوا الى مصر من السودان .

تعرف يوسف ادريس على السودانيين في مصر ، وخاصة السودانيين اليساريين . وكان رغم كل البلبلة والفوضى التي تحيط به كانسان ، يملك في اعماقه شفافية وصفاء نفسياً ، اذا احب انسانا أنس اليه وصادقه . لذلك نشأت بيننا علاقة اخوة طيبة . كنت حين اجيئ الى القاهرة لابد ان ابحث عنه . وهو ممتع في جلساته . ويستقطب في جلساته من يستمع إليه ويشد الجالسين معه . رغم أنه كان أحياناً يعبر عن آراء متطرفة . . . حتى لو لم يكن يؤمن بها . لذلك كان في أول المساء يقول رأيًا ، ثم يناقضه في آخر الليل ، ويثير جدلاً ونقاشاً . واعتقد ان يوسف ادريس كانت له موهبة خارقة جنت عليه أحياناً .

صلاح جاهين

تعرفت في مصر كذلك على صلاح جاهين ، واظن انني تعرفت عليه عن طريق منسي يوسف بسطاوروس ، الذي كتبت عنه كثيراً . كان منسي يحب صلاح جاهين كثيراً بل ويزعم أنهما يتشابهان . وبالفعل كان كلاهما قصيراً وممتلئًا .

لاشك أن صلاح جاهين كان شاعراً عظيماً . وكان عكس يوسف ادريس لم تتعبه الموهبة . لان موهبة يوسف ادريس اتعبته لذلك كان ميالا للجدل والحدة والصراع .

صلاح جاهين إنسان هادئ ، مثقف ، عميق الثقافة ، شاعر ورسام كاركاتير له شأن كبير . وفي أواخر ايامه حدث له زلزال داخلي فتزعزع . لذلك قام باشياء بدت عبثية . فاشترك مثلا في فيلم «خلي بالك من زوزو» ، وقدم اغاني لاعلانات تجارية واشياء من هذا القبيل . لكن ذلك كان جانباً عبثياً من شخصيته الجدية .

التقيته قبل وفاته في لندن ، فقد استقبله منسي في المطار ، وزاروني في البيت قبل ان يذهبوا الى عزبة منسي في ضواحي لندن . واحسست ان جاهين كان متعبًا للغاية ، وكأنه قد فقد الرغبة في الحياة .

لم يكن امامي آنذاك صلاح جاهين الذي أعرفه ، والذي وضع كلمات نشيد الثورة المصرية . . . ، أو مارسييز الثورة ، والذي تقول كلماته : ثوار ثوار على طول المدى ثوار . . . مطرح ما نمشي يفتح النوار . . .»

فقد انفعل انفعالاً كاملاً بالعهد الناصري لانه عبر عن افكاره ووجدانه . وحين وقعت هزيمة 1967 ، وتلتها وفاة جمال عبدالناصر ، وبدأت تنشر تفاصيل حول ماحدث في عهد ناصر ، أصيب صلاح جاهين باحباط شديد . فقد تكسر الحلم الذي عاش حياته من أجله . وهو ما أدى إلى تناقض في سلوكه ، والناس قد لاتفهم أن الموهبة في بعض الأحيان تتحول الى عبء ثقيل جداً . ويتفاوت تعامل المبدعين مع الموهبة . بعض الناس لديهم الصبر والجلد مما يتيح لهم ان يعيشوا حياة سوية . . . لكن آخرين يتحولون اما الى مدمني خمر ، أو يتعاطون المخدرات او يشغلون انفسهم بالجري وراء النسوان . . . . وهناك فئة تضطر للانتحار لان الموهبة تعذب كثيراً .

عبدالرحمن الابنودي

من أصدقائي كذلك عبدالرحمن الابنودي . وهو قريب من السودانيين لان اصله من ابنود (منطقة اسوان) ، وهو يشبه شكلاً عرب البشاريين في السودان ، شاعر مبدع وصديق عزيز . توثقت علاقتنا حين جاء الى لندن رفقة زوجته السابقة عطيات الأبنودي . بعض الناس تنتقد الابنودي ، لأنه اتخذ مواقف بدت لهم غير منسجمة مع أشعاره ، وآخرون يقولون أنه اصبح يحب جمع الفلوس . ولا أعرف ما الضرر في ذلك ، ولنفترض أنه أصبح يحب الفلوس ، فهذه جزئية . . . . لا تؤثر على عطاءاته . وأعتقد أن شعره رائع جداً ، وحين زار السودان وجد ان هناك الألوف الذين يحبون شعره ، ربما لأنه تولد لديهم إحساس بانه منهم . واذا كانت هناك أشياء سلبية لدى الأبنودي على حد إعتقاد البعض فإنها لا تنتقص من قيمته كمبدع وإنسان . . . ويجب أن نقر أن هناك عدداً قليلاً من الناس يمكن أن تسير حياتهم على وتيرة واحدة .

تماما حين يحا ول البعض ان ينتقدوا المتنبي ، لانه في رأيهم كان لا يجوز ان يمدح سيف الدولة . . . وبعد ذلك يمدح كافور الاخشيدي ثم يعود ليشتمه . هذه

عبقرية قلقة لا تستطيع حبسها في قالب واحد . فاذا كان المتنبي قد مدح سيف الدولة فهل يظل يمدحه الى آخر الزمان . المهم انه حين مدح سيف الدولة أو كافور الاخشيدي . . . ثم هجاه ، كتب شعراً خالداً . لقد مات المتنبي منذ قرون ولكن شعره سيبقى . كذلك مات صلاح جاهين لكن اشعاره ستظل . وشعر عبدالرحمن الأبنودي يحمل ابداعًا لانقاش فيه ، والصواب بالنسبة لي أن نضع كل هذا ونستوعبه في إطار جزئيات الحياة فذلك أفضل .

اصيلة

عرفت المغرب منذ زمن ، وكنت ازوره على فترات متباعدة . لكن علاقتي الحقيقية مع هذا البلد بدأت عام 1978 ، حين قابلت محمد بن عيسى في الدوحة ، كنت آنذاك اعمل في وزارة الإعلام القطرية ، فجاء هذا الشاب المغربي في زيارة الى قطر ، وكان قد اصبح نائباً في البرلمان .اجتمعنا سوياً فوجدته شاباً ظريفا لطيفاً متحمساً ، وتحدثنا خلال اللقاء عن فكرة موسم اصيلة الثقافي . . ادهشتني الفكرة ، واعجبت بها . ثم زرت اصيلة في موسمها الثاني ، واظبت بعد ذلك على حضور الموسم ، باستثناء مرات قليلة ، حالت بيني وبين الحضور ، بعض الارتباطات الطارئة .

وهكذا رافقت نمو هذه الفكرة التي تحولت من مهرجان ثقافي متواضع ، الى مؤسسة ثقافية لها إشعاعاً عالمياً . كما أنني رافقت نمو اصيلة ، من مجرد قرية تفتقر الى البنيات الاساسية ، بلا ماء او كهرباء وبشوارع متربة وحالتها مزرية ، وتابعت كيف تحركت لتصبح مدينة عصرية جميلة .

واعتقد ان اصيلة تعد نموذجاً رائعاً لكيفية حدوث تنمية بواسطة جهد وهمة ابناءالبلد ، خصوصاً إذا كان من يتعهد هذا العمل أحد ابناء المدينة ، يحب اهله ويعمل على رفاهيتهم .

اكن ، شخصياً ، لمحمد بن عيسى احتراماً واعجاباً . وقد وجدت انه رجل ذكي ، متفتح . ثم انه قام في حياته بمغامرة كبيرة . ذهب الى الغرب ودرس في امريكا وتزوج منها ، وعمل في الامم المتحدة ، وتقلد وظيفة كبيرة وهو بعد ، في العشرينات من عمره .

بعد ذلك عاد الى بلدته ، ليقوم اولاً بانقلاب داخلي في حياته ، فقد طلق زوجته الأمريكية وتزوج مغربية ، وبنى لنفسه منزلاً داخل المدينة القديمة في اصيلة ، قريب من قبر أمه ، ثم راح يستعيد هويته الحقيقية ، وهذا في حد ذاته مثال جيد للخروج من أزمة يعانيها كثيرون من الشباب العربي الذي هاجر الى الغرب .

وحين تعرفت على بن عيسى عن قرب وجدت فيه شخصية مرحة ، و له قدرة على فهم ما يجري حوله . وعن طريقه احببت المغرب ، واصبحت اعرفه جيداً .

رغم بعد المسافة بيننا وبين المغرب ، لاحظت ان هناك اوجه شبه كثيرة مع السودان . كانت الطرق الصوفية قد وفدت الينا من المغرب ، وجاءنا علماء مغاربة أيام مملكة سنار في القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم أن تركيبة المغرب السكانية وكونه همزة وصل بين العرب وافريقيا السوداء ، فإنه يشبه في ذلك كثيرا الدور الذي يفترض ان يقوم به السودان .

وقد تراكمت لدي ذكريات جميلة في أصيلة ، لان هذه البلدة بدأت تخلق ميثولوجيا المكان ، فالمكان ينمو وتكون له صيرورة ، ليس فقط عن طريق الناس الذين يعيشون فيه ، ولكن كذلك عن طريق الذين مروا منه ، وحملوا صورته في خيالهم وذهبوا بها إلى جميع أنحاء العالم .

فقد جاء لاصيلة رسامون من اليابان وكتاب من أمريكا وشعراء من البرازيل وأدباء من فرنسا ومبدعون من شتى اصقاع العالم ، هؤلاء الناس حملوا صوراً للمكان ورحلوا بها ووزعوها في العالم بأسره . ثم هناك الذين أحبوا المكان وماتوا ، الموت أيضا يعمق فكرة الميثولوجيا ، ويخلق ميثولوجيا المكان .

في أصيلة تعرفت على كثيرين .

هنا تعرفت على الرجل الكبير ، ليوبولد سيدار سنغور ، وأذكر أننا أمضينا ليلة جميلة في منزل محمد بن عيسى في الرباط ، وكان سنغور قد ترك لتوه رئاسة الجمهورية في السنغال . وراح في تلك الليلة يغني لنا ، لتأكيد نظرية كان يتبناها شيخو ديوب من السنغال ، تقول أن الحضارة لم تأت من الشمال إلى الجنوب ، بل

انتقلت من الجنوب إلى الشمال . وفي هذا الصدد يقول سنغور ، إن الحضارة خرجت من غرب أفريقيا وانتقلت إلى وادي النيل ثم عبرت شمالاً عن طريق البحر الأبيض المتوسط إلى اليونان . لقد غنى لنا سنغور حتى نفهم أن أصل التراجيديا اليونانية افريقي !

وفي أصيلة تعرفت أيضاً على الكاتب البرازيلي جورج أمادو ، وهو كاتب أفضله شخصياً على غابرييل غارسيا ماركيز . وأتذكر أن محمد بن عيسى أقام له احتفالاً خاصاً بمناسبة بلوغه الثامنة والسبعين ، وتأثر أمادو لذلك غاية التأثر .

في تلك الامسية جلست معه وتحدثنا طويلاً ، وسألته : هل لا تزال تقع في الحب؟ فأجاب : عشت كل هذه السنين لانني أقع دائماً في الحب !

وفي أصيلة التقى عدد كبير من الأدباء والكتاب العرب مع بعضهم بعضاً دون قيود وعاشوا لحظات مفعمة بالود الانساني ، فقد جاء إلى هنا يوسف إدريس وكان في غاية الانشراح . وتردد على أصيلة كذلك الشاعر الراحل بلند الحيدري ، كما زارها أميل حبيبي . وهكذا أصبح المكان يأخذ حجماً أكبر من حجمه وواقعاً أكبر من واقعه في مخيلة الناس .

ومن خلال ترددي على أصيلة أقمت علاقات وثيقة مع أهل هذه المدينة ، ومن الظواهر الملفتة أنك أينما سرت في شوارع أو أسواق هذه المدينة ، إلا ووجدت شخصاً يصافحك باسمك ، ويعرفك معرفة شخصية . هذه ظاهرة جميلة قل ما توجد في مدينة عربية .

كما أن أصيلة قامت ببادرة غير مسبوقة ، وذلك حين خصصت جائزة باسم الشاعر الكونغولي تشكايا أوتامسي ، تمنح للشعراء الافارقة ، وهناك دلالات كبيرة في منح تلك الجائزة للشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي ، وفي ذلك بعد نظر كبير ، وسبق أن منحت الجائزة للشاعر مسيسي كونيني من جنوب افريقيا ، حتى قبل ان تنتهي سياسة الميز العنصري في ذلك البلد ، وكانت تلك بمثابة إشارة وانتباه الى أن الافارقة في أقصى جنوب القارة هم اخوة لنا .

ومن الاشياء التي ستبقى في ذاكرتي للابد ، وأثرت في تأثيرا كبيراً ، حفل التكريم الذي اقيم لي في اصيلة . لقد تأثرت بالغ التأثر بهذه المبادرة ، أن يقام حفل

في اقصى الغرب الاسلامي على ساحل المحيط الاطلسي لتكريم شخصي ، هذا أمر لاينسى ، ومن خلال التكريم ادركت كيف يمكن ان تبلغ حفاوة بعض الناس بالصلات التي تجمعنا كعرب ، وكيف يمكن ان يتجسد تقدير الفكر والادب ، ثم ان اصيلة أقامت لي حفلا تكريمياً حتى قبل ان يقام لي في بلدي ، هذا شيء لم يكن يخطر على البال .

واعتقد أن المعاني وراء هذه المبادرة ، تنفي الاحساس بالقنوط والاحباط الذي يساور بعض الناس عن الامة العربية هذه الايام ، لانه يوجد تحت هذا السطح الذي تمزقه الخلافات السياسية ، نهر جوفي يجمع بين الناس ، وهو نهر فيه مزيج من الادب والفكر والفن ، وفي هذه العناصر توجد جميع نقاط الالتقاء ، وهذا يؤكد في كل الاحوال وجود أمة واحدة تحت السطح الممزق ، رغم الافكار اليائسة التي تتحدث عن اننا لسنا امة واحدة ، وأن كل أحد يجب أن يذهب إلى حال سبيله .

لذا اعتقد أن الناس ادركوا من خلال مهرجان اصيلة أهمية الثقافة وأن الجهد السياسي والاقتصادي لابد ان يواكبه جهد ثقافي لان الثقافة هي الاساس ، ولانها مرتبطة بحركة الزمان السرمدية ، وهي التي تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل .

الفصل الخامس

السياسة : الوقوف على الحياد

السياسة

لم ينتم الطيب صالح إلى أي حزب سياسي ، رغم أنه ارتبط بعلاقات واسعة ووطيدة مع معظم السياسيين السودانيين من أقصي اليمين إلى أقصى اليسار . لكن المؤكد أن الطيب صالح وبحكم نشأته وتكوينه ظل ليبرالياً متحرراً في أفكاره ، وأكثر ميلا للأنظمة السياسية التعددية ، وهو أمر طبيعي لكاتب يمارس مهنة الكتابة . . . ولا يقبل أن تحده حدود ، ويروقه أن يرتاد كل الافاق دون رقابة خارجية أو ذاتية ، في ظل أجواء تكفل حرية التعبير و إبداء الرأي .

لقد مرت على السودان ثلاث تجارب ديموقراطية ، ولم يكن الطيب صالح خلال فترة الديموقراطية الأولى في السودان (1955-1958) ، وخلال فترة الديموقراطية الثانية (بعد ثورة أكتوبر الشعبية 1964) عاد إلى السودان ليعمل فترة قصيرة في وزارة الإعلام السودانية ، ورغم تأثره ببعض الأفكار الرائجة آنذاك ، فإنه نأى بنفسه عن الحزبية والتحزب . وخلال فترة حكم جعفر نميري ، التي كانت أكثر الفترات تقلباً وبؤساً في حياة السودان الحديث ، ظل الطيب صالح أيضاً بعيداً ، لكنه اتخذ موقفاً صامتاً ضد النظام . وحين انفجر الشارع السوداني في انتفاضة أبريل (نيسان) 1965 ، حدثني الطيب صالح ، وقال لي جملة بليغة لا تزال عالقة بالذاكرة :

«لقد استعاد شعبنا كرامته» .

وعندما استولت الجبهة القومية الإسلامية على الحكم عبر انقلاب عسكري في يونيو 1989 ، اتخذ الطيب صالح موقفا أكثر صراحة ، ومنذ الوهلة الأولى ، كتب مناهضا لهذا النظام . وقد ذاع صيت ذلك المقال الشهير الذي يتساءل فيه : «من أين جاء هؤلاء . . .؟»

ووزع المقال وكأنه منشور سياسي على نطاق واسع داخل السودان ، لقد شكلت كتابات الطيب صالح ضد نظام الجبهة القومية الاسلامية أرقاً ملحوظاً للنظام واصحابه ، فقد كانت كتابات مبدع يكن له أهل السودان مودة وتقديراً واحتراماً لم يحظ به كاتب آخر . لذلك أصابت «الجماعة» كما كان يرمز إليهم في مقتل وأوجعتهم وجعاً شديداً ، لأن الكاتب هو الطيب صالح .

وحتى في نقده للنظام حافظ الطيب صالح على سمو خلقه ونبله ، لكن كلماته وتعابيره كانت صعبة للغاية في حق القوم فهو يكتب قائلا :

«هذا الحكم جاء ليرفع الوية الإسلام في غابات الجنوب ، ولم يستطع لأن الجنوب لم تبق فيه مساجد ولا كنائس فقد دمرتها الحرب الضروس . لكن مقابل ذلك قامت كنائس في الشمال في أماكن لم تسمع غير نداءات المؤذنين منذ أكثر من عشرة قرون . . . خطر لي أن هذا الحكم ربما يكون قد صنع شيئا لم يخطر على بال أحد من قبل . فقد انتج نمطاً جديداً من البشر كالفينيين بروتستانت ، ينطقون بلسان المسلمين اليقينيين ، ومسلمين يتحدثون لسان الكالفينيين البروتستانت» .

ولجده في موقع آخر يكتب قائلا « . . . الذي لا شك فيه ، أن تنكيل هذا العهد بجموع غفيرة من موظفي الدولة هو من آلام ما يمكن أن يوقعه أي حكم بمواطنيه ، . . . إن هذا النظام قد ابتدع من وسائل المخابرات والتجسس والتلصص على الناس ما يدعو حقا إلى العجب ، . . . إنهم وضعوا أنفسهم ووضعوا الوطن في مأزق فادح ، وياليتهم يذهبون بسلام .»

ويمضي الطيب صالح في لغته اللاذعة الموجعة في نقد النظام فيقول : «تحسست الجواز السوداني في جيبي ، كان أزرق اللون فعملوه أخضر وصغروا حجمه . كل عهد يجيء لابد أن يغير شيئا خاصة إذا كان عهداً ثورياً ، ونحن هذه الأيام ، نتقلب في بحبوحة (ثورة الانقاذ) لله درهم . حلوا معضلة الجنوب ، ونصبوا ميزان العدل ، وأهابوا بالسماء أن تمطر وبالأرض أن تخضر ، فأصبحنا نأكل مما نزرع ، ونلبس مما نصنع ، وأرخوا سدول الطمأنينة والأمن ، فأمسى الرجل يسري من (محمد قول) إلى (توريت) لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه .»

ويستطرد :«هم قوم كما وصف الشاعر (إذا الشر أبدى ناجذيه لهم) فرغوا من إصلاح اعوجاج السودان ، ويريدون أن يصلحوا العوج في كل مكان ، في تونس والجزائر ولبنان وفي مصر وبلاد الخليج وبلاد الأفغان» .

ويتعجب الطيب صالح كثيراً للمقاييس التي يعتمدها النظام في تصنيف الناس ، فقد قال لي مرة متسائلاً : «هل يعقل أن يصنف من يختلفون مع نظام الجبهة القومية الإسلامية في خانة الكفار ، بل ويصل الأمر إلى حد إهدار دمائهم؟» .

ولم ينس النظام هذا النقد اللاذع ، لذلك حاول التضييق على رحيل وترحال هذا الكاتب ، وحين تجرأ أحد السفراء السودانيين من ذلك الرهط الكريم الذي لايزال يرى الأمور كما هي ، لا كما تريدها «الجماعة» في الخرطوم ، وبادر بتجديد جواز سفر الطيب صالح كان مصيره الإحالة على التقاعد من أجل «الصالح العام»!

لكن لماذا صب الطيب صالح جام غضبه على هذا النظام ، وهو الذي اعتاد أن ينأى بنفسه دائما عن تفاصيل السياسة ومنغصاتها ، رغم أنه كان لايتردد في أن يجاهر برأيه في جلساته الخاصة مع معارفه وأصدقائه .

لا أملك جوابا قاطعا ، ولكن لا جدال أن سببه لابد انه يتمثل في ما جاء به نظام الجبهة القومية الإسلامية من عسف وقهر لم يألفه السودانيون ولم يعرفوه قطعاً من قبل .

لقد أحس الطيب صالح بما أحس به السودانيون قاطبة ، باستثناء «جماعتهم» ، وربما قد أيقن وتيقن ، أن هؤلاء البشر الذين جاؤوا «لانقاذ» السودان ، ليسوا من طينة أهله ، لذلك ساءلهم ذلك السؤال الموجع : من أين جاء هؤلاء؟

وإذا كان الطيب صالح قد ابتعد عن السياسة بمعنى التحزب والانتماء ، فإنه ولا شك ظل يعيش هموم وطنه بتجرد وبحب جارف . وهو انعكاس اصيل لشعبه .

الإنسان الطيب المعتدل الذي يرجو الخير للناس جميعا . لذلك قال لي مرة : «انا لم اكتب ضدهم - يقصد نظام الجبهة القومية الاسلامية - لانني لا اعمل ضمن معارضة منظمة . كل ما في الامر انني قلت واقول رأيي ، وهذا واجبي نحو اهلي . ثم ان هذا النظام محط الانتقادات شرقاً وغرباً ومع ذلك تراهم يريدون إيقاف البحر عبر سدود الرمال»

ثم نجده في موقع آخر يقول : «قدري أن أكون مواطنا لا أحمل ولاء للحكم القائم (نظام الجبهة القومية الإسلامية) ولا للذين ينازعونه الأمر ويطلبون أن يحلوا محله . ولائي . . . للوطن في صيرورته الأبدية . وما أصعب ذلك من ولاء .»

في هذا الفصل محاولة لتلمس علاقة ، قد تبتعد أو تقترب من السياسة والسياسين ، ومن ثنايا وقائعها ، قد نستشف بعض آراء الطيب صالح السياسية ، وهو يقول في هذا السياق :

****

«لم تكن لديّ اية نية للعمل في السودان . إذ كان يصعب علي العمل في الخدمة المدنية ، بعد ان تركت البلد لفترة طالت . كما انني لم اكن اتطلع مطلقاً للمناصب العليا ، الوزارة مثلا . ثم ان الامر ربما كان يتطلّب انتماءاً سياسيا وهي مسألة لم تكن واردة على الاطلاق .

ورغم ذلك فقد شاءت المصادفة ، والصدفة لعبت دائما دوراً كبيراً في مسار حياتي ، ان اعمل لفترة قصيرة في وزارة الاعلام السودانية . ولعلها كانت قصيرة لكنها خصبة جداً .

فقد سعى محمد احمد محجوب حين كان رئيسا للوزراء لانتدابي من هيئة الاذاعة البريطانية (B.B.C) لوزارة الاعلام . والواقع ان ابناء محجوب من جيلي وكنت التقيه كثيرا حين يزور لندن ، ولعلهم ارادوا ان اعمل مديرا لمكتبه لكنني لم اقبل . لذلك سعى محجوب لانتدابي لكي اعمل في وزارة الاعلام . وكان وزير الاعلام آنذاك هو داود عبداللطيف .

كان داود عبداللطيف من السودانيين النابهين ، وهو أصلاً من منطقة حلفا في اقصى شمال السودان ، ومن اوائل الذين عملوا في السلك الاداري . وكانت له دراية واسعة بالسودان واهله ، شديد الذكاء ، وصاحب دعابة ، له شخصية مرحة ، شخصيته بريختية كما كنت اصفه . وله صداقة متينة مع استاذنا الجليل جمال محمد احمد وأستاذنا محمد توفيق .

كان داود عبد اللطيف وجمال محمد احمد ومحمد توفيق ومحمد حلمي ابوسن ، وعبدالاله أبو سن ومحمد احمد المرضي وبشير محمد سعيد وآخرون ابناء جيل واحد . وهم في الغالب ابناء لشيوخ قبائل ونظّار ، معظمهم من ابناء الريف تآلفوا فيما بينهم وجمعت بينهم مودة ، تجاوزت خلافاتهم الحزبية .

بعض الناس يقولون ان الحزبية تفسد علاقات الطبقة السياسية ، هذا الاستنتاج – في السودان على الاقل – لم يكن صحيحاً . فرغم الخلافات الحزبية فان قادة الاحزاب السياسية استطاعوا اقامة علاقات صداقة ومودة بينهم ، ولم تصل الامور مطلقاً الى حد القطيعة ولعل ذلك ما ميّز التجارب الديمقراطية في السودان . والمفارقة ان القطيعة والخصام السياسي الذي وصل حد الصدام لم يعرفهما السودانيون الا في ظل الانظمة الشمولية .

حين جئت الخرطوم ، اقترح علي داؤود عبداللطيف أن أصبح مديراً لاذاعة السودان ، وكان جوابي انني لا استطيع تولي هذا المنصب لان ذلك يتعارض مع وظيفتي في هيئة الاذاعة البريطانية . واقترحت ان اعمل كمستشار في الوزارة ،

فوافق داود الخليفة على الاقتراح . وقد عملت معه بارتياح رغم قصر المدة ، فقد كان سريع الفهم والتنفيذ .

كان داؤود الخليفة ينتمي الى حزب الامة ، ولانه كان من كبار الاداريين قبل استقلال السوان اتهمه بعض الناس بالولاء للانجليز ، ولم يكن ذلك صحيحاً . فقد شاءت ظروفه ان يعمل مع الادارة البريطانية ، لكنه قطعا لم يكن من «أولاد الانجليز» كما كان يطلق عليهم . ولانه عمل في وزارة الداخلية قبل الاستقلال ، كان يتلقى تقارير من المخابرات حول نشاط الجماعات اليسارية خاصة الشيوعيين ، فكان يرمي بتلك التقارير جانباً ويبلغ مضمونها لاصدقائه من اليساريين آنذاك من امثال محمد عمر بشير ، بل كان ينصحهم أحياناً بعدم الاجتماع في بعض الاماكن لانه يعرف انها مراقبة من طرف المخابرات .

وخلال الفترة التي امضيتها مع داود الخليفة في وزارة الاعلام السودانية ، قمنا بانجاز عدة اشياء لتنظيم عمل الوزارة ، وكان ينفذ فوراً ما يقتنع به ودون تردد .

لكن تلك الفترة لم تطل لسوء الحظ ، فقد تولى الصادق المهدي ، رئاسة الحكومة خلفاً لمحمد احمد محجوب ، ولعل تلك من المفاصل المهمة في تاريخ الديمقراطية السودانية .

كان الصادق المهدي آنذاك شاباً يافعاً ، لم تتعد سنه الثلاثين عاماً ، وبمجرد ان انتخب نائباً في الجمعية التأسيسية (البرلمان) قاد حركة انشقاق داخل حزب الامة فانحاز اليه معظم نواب الحزب ، وقام بعقد تحالف جديد مع الحزب الاتحادي الديمقراطي تولى بعده رئاسة الحكومة ووزارة الاعلام .

شخصياً احترم الصادق المهدي . فهو انسان مهذّب لبق فصيح يفيض أدباً ، لكن إذا قارناه مع داؤود كوزير للاعلام سنجد أن الصادق المهدي يميل الى التنظير ، وبحكم صغر سنه وتجربته لم يكن لديه الوقت الكافي لتسيير رئاسة الحكومة ووزارة الاعلام في الوقت نفسه . ثم انه خلف محمد احمد محجوب . . . ومحجوب كان ، شخصية ضخمة على الصعيدين العربي والعالمي . وفي رأيي أن الصادق المهدي استعجل الوصول الى الحكم ، وربما اعتقد في قرارة نفسه أنه ولكونه حفيد الامام محمد أحمد المهدي له حق موروث في الحكم . وفي تلك الفترة

ارتكب خطأ كبيراً ، حين دخل في عراك وصراع مع الشريف حسين الهندي ، وهذا من السودانيين النوابغ ، وان كان في نبوغه شيء من الفوضى . لذلك دخل الاثنان في معركة وصراع انتهى بهدم التجربة الديمقراطية برمتها ، وتكسير بعضهما بعضاً .

والواقع ان الصادق المهدي توجد فيه كثير من صفات الزعيم الكبير المؤثر ، وشخصيته لا تخلو من الكرزماتية ، لكن بحكم نشأته وتربيته كان بعيداً عن واقع الحياة السودانية البسيطة الهيّنة ، إضافة إلى أنه لم يخبر تلك الحياة كما ينبغي . نحن ابناء جيلنا ، عملنا مع اهلنا المزارعين ، واشتغلنا في الحقول والرعي ، فقد كنا اكثر التصاقاً بواقعنا . واظن ان الصادق المهدي لم يعرف هذه الاشياء ، لذلك تجده يفكر من أعلى .

وكما اسلفت فقد كانت فترة عملي في وزارة الاعلام على قصرها خصبة جداً . أتاحت لي أن أعيش في السودان ، ثم انني تعاملت مع وضع صعب جداً . وكانت وزارة الاعلام من اصعب المرافق التي يمكن العمل فيها .

كانت الوزارة تضم الى جانب الاعلام العمل والشؤون الاجتماعية والاعلام الخارجي والاذاعة والتلفزيون والمسرح ، ولم يكن هناك تجانس بين هذه المرافق . وكان ابراهيم خليل يتولى وظيفة مدير الوزارة ورغم أنه بعيد عن حقل الاعلام فقد كان ادارياً ممتازاً .

. احتفظ الصادق المهدي بوزارة الاعلام الى جانب رئاسته الحكومة لفترة قصيرة ، بعدها اسندت الوزارة الى احمد عبدالرحمن المهدي ، وقد وجدته اكثر واقعية من الصادق المهدي .

كان صديقي عثمان محمد الحسن يتولى إدارة الشؤون الاجتماعية ، وهو من نوري (منطقة مروي) ، ومن الأصدقاء القريبين جداً الى نفسي ، وبدأت صداقتي معه منذ ان كان مبعوثاً في لندن ، للاطلاع على نظام العمل داخل مجلس العموم البريطاني ليعمل بعد ذلك في سكرتارية البرلمان السوداني . وقد ساعدني مساعدة كبيرة ابان عملي في الوزارة فقد كنا نلتقي في بيته ونتدارس مشاكل الوزارة . تزامنت فترة عملي في وزارة الاعلام مع فورة الأحداث عقب ثورة اكتوبر ، كان البلد في حالة تأجج ديمقراطي . لذلك استفدت فائدة كبيرة من وجودي داخل

السودان تلك الايام . ورغم ذلك تحاشيت ، بل لعلني نأيت بنفسي عن الانغماس في العمل الحزبي والسياسي المباشر .

العلاقة مع الأحزاب

والواقع انني ومنذ المرحلة الثانوية ، ابتعدت عن التحزّب ، رغم ان ذلك لم يكن في تلك الفترة امراً سهلاً ، فعندما كنا ندرس في مدرسة وادي سيدنا الثانوية ، كان الصراع ينحصر على أشده بين الشيوعيين والاسلاميين (الاخوان المسلمين فيما بعد) كنت انذاك اقوم بأداء الفرائض ، وأحافظ على الدين لكن لست متديناً بالمعنى السياسي والايديولوجي للكلمة . كنت احضر اجتماعات الاسلاميين والشيوعيين . و اميل الى الحديث في الجمعيات الادبية ، وفي الوقت نفسه انفر من المناظرات السياسية . والانطباع السائد لدى اقراني من الطلاب انني «طالب شاطر» له اهتمامات ادبية . كان صديقي محمود احمد محمود وهو من كورتي ، ينضم مرة للشيوعيين وتارة للاسلاميين ، في اطار حب الاستطلاع فقط . لانه بطبعه لم يكن يميل الى الانضباط . وكان كثيرا ما يحدثني عن افكار المجموعتين . ورغم ذلك لم انضم الى اية جهة خلال دراستي الثانوية . . . فقد وقفت على الحياد . وبالنسبة لعلاقتي مع الشيوعيين ، أتذكر تفاصيل واقعة حدثت لي إبان دراستي في المدرسة الثانوية . فقد كان المرحوم ابراهيم عبدالله زكريا ابن خالي وهو شيوعي بل سيصبح لاحقاً من قادة الحزب الشيوعي السوداني ومن أقطاب الحركة الشيوعية العالمية . كنت أزور ابراهيم زكريا بحكم القرابة ، ويبدو أن المخابرات الانجليزية كانت تراقب نشاطه . في تلك الفترة جاءنا مدرس رياضيات يدعى مستر سميث ، وكان شيوعياً ، وفي أحد الأيام كان مطلوباً مني تقديمه لالقاء محاضرة في الداخلية ، ويبدو أنني أطنبت في مدحه ، فاستدعاني مستر لانغ ناظر المدرسة وقد كان معجباً بي ، وسألني بأدب شديد حول ما إذا كنت مقتنعاً بالكلام الذي وصفت به مستر سميث . واستغربت في الواقع السؤال . وأبلغني أن مستر سميث شيوعي ، وقال لي أن المخابرات طلبت منه استفساري حول ما إذا كنت شيوعياً !! تعجبت جداً لهذه الحكاية ، وبالطبع نفيت أن أكون شيوعياً ، والواقع أنني كنت معجباً جداً بعبدالخالق محجوب كسوداني نابغة وبفاطمة احمد ابراهيم

ابراهيم كإنسانة[1] لكنني لم أكن شيوعيا في يوم من الأيام .

حين انتقلنا الي الجامعة ، دأبت على التسامر مع مجموعة كانت تضم محمود احمد محمود ومحمد خير عبدالقادر وكان من الطلاب الموهوبين الاذكياء ، ويوسف حسن سعيد وفتح الرحمن البشير ، والرشيد الطاهر بكر ، ومحمد يوسف محمد ، والذي كان في تفكيره اقرب الى الاسلاميين وقد انضم اليهم بالفعل في وقت لاحق ، لانه في تلك الفترة لم يكن لديهم تنظيم داخل الجامعة . ورغم أن محمد يوسف لم يكن متطرفاً في تفكيره ربما لانه ينحدر من القرى . والريف السوداني عُرف بالتسامح لذلك لم أستطع أن استوعب تأييده لنظام الجبهة القومية الاسلامية ، فهو ليس متطرفاً ، ولا أعرف كيف استطاع مجاراة هؤلاء الناس . فقد كانت لديه القدرة التي ورثناها من اهلنا في تجميع الناس وتوحيدهم ، والبحث عن القواسم المشتركة ، وامكانية التعايش احياناً مع اشياء متناقضة .

كانت هذه المجموعة تلتقي بعد المحاضرات خاصة في الامسيات وكنا نفترش الارض في ميادين الجامعة . نتذاكر حول اشياء عديدة ، ونتبادل الرؤى والافكار . وبعد فترة لم اعد اجالسهم فقد تركتهم ومضيت الى حال سبيلي .

معظم اهلي ينتمون الى الحزب الوطني الاتحادي (الاتحادي الديمقراطي لاحقاً) وربما لو كنت فكرت في الانضمام الى حزب لاخترت الحزب الوطني الاتحادي . وحين عدت الى السودان للعمل كمستشار في وزارة الاعلام ، بدأ الصادق المهدي يلمع كزعيم سياسي وكان يبدو وكأنه «كنيدي السودان» . فهو ينتمي الى بيت عريق ، وهو بيت آل المهدي ، متعلم وخريج اكسفورد . طرح نفسه كسياسي مناهض للطائفية ، ينتقد الولاء الاعمى . وقد حضرت له محاضرة رائعة في (دار الثقافة) بالخرطوم عام 1966 عبر خلالها عن افكاره بوعي ونضج وفصاحة لسان وبلغة عربية متينة ، وتحدث آنذاك عن المشكلة التي لم نستطع حتى اليوم ان نجد لهاحلاً في السودان ، وهي التأرجح بين نظام ديمقراطي عاجزعن الانجاز ونظام

---

(1) عبدالخالق محجوب هو السكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني وقد أعدمه نميري عام 1971 وفاطمة احمد ابراهيم كذلك من قادة الحزب الشيوعي وكانت أول سودانية تدخل البرلمان عام 1965 بعد الانتخابات التي جرت عقب ثورة أكتوبر التي أطاحت بنظام الفريق ابراهيم عبود . والمفارقة ان نميري اعدم اربعة من أهم الشخصيات السودانية ، فقد اعدم عبدالخالق وكان من أذكى السودانيين ، واعدم محمود محمد طه وهو من أكثر السودانيين ورعا ، واعدم فاروق عثمان حمد الله وهو من اشجع السودانيين كما اعدم بابكر النور اكثر السودانيين تسامحاً .

ديكتاتوري يعتمد القهر والكبت . وقدم الصادق المهدي ، وسنه آنذاك لا تتعدى 30 عاما ، تحليلاً علمياً دقيقاً لهذه الوضعية ، ولشدة ما بهرني وجذبني حديثه كدت اعلن ولائي له ، وهو لا يعرف ذلك الى يومنا هذا . لكن الامور تأرجحت بعد ذلك . ولعلني فعلت خيراً في عدم الانضمام الى أي حزب ، اذ انني اؤمن ان دوري ليس دور من ينضم الى تنظيمات سياسية ويعمل من خلالها .

أنا أحب السودان حباً شديداً بطبيعة الحال ، وولائي كما أقول دائما للأمة في صيرورتها الدائمة والمستديمة ، وهذا التزام أبدي . وواضح أن آراء السياسيين تتبدل تبعا للظروف والتقلبات السياسية ، وهم يريدون من المفكر ان يتبدل معهم ، وهذه مسألة متعبة .

واقرب مثال جعفر نميري ، فقد كان اشتراكياً فاراد ان يكون الجميع اشتراكيين مثله ، ثم تحول الى ليبرالي واراد الجميع على شاكلته ، وفجأة تحول الى مسلم متشدد ، وطلب ممّن معه ان يتأسلموا . لذلك ادخل من عمل معه في تناقضات شديدة ، واعتقد انه كان من الافضل لفئة المثقفين الذين عملوا معه البقاء بعيداً عن هذه التقلبات المزاجية والاهواء المتناقضة .

وهنا تحضرني واقعة لها دلالتها ، لا بأس من سرد تفاصيلها .

كان السيد عبدالرحمن المهدي راعي طائفة الانصار (جد الصادق المهدي) رجلاً كريماً شهماً ، حتى مع خصومه السياسيين . ومن نبله انه كان يحترم كثيراً عبدالخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعي ويعامله كأبنه ، فقد ربطته صداقة مع والد عبدالخالق محجوب ، وهذه قصة سمعتها من اكثر من شخص ، فقد حدث ان جاء وفد شيوعي سوفياتي لزيارة السودان للمرة الاولى بدعوة من الحزب الشيوعي السوداني . وسمع السيد عبدالرحمن المهدي رحمه الله بأمر هذا الوفد ، فاستدعى عبدالخالق محجوب وسأله عن الامر ، فأكد له الخبر . واستفسره عن الكيفية التي سيكرم بها الشيوعيون السودانيون ضيوفهم ، فأجابه عبدالخالق محجوب بانهم لم يفكروا في موضوع الضيافة ، وقال له انه على الارجح سوف يقيمون لهم حفلة شاي . وكان جواب السيد عبدالرحمن المهدي أنه لا يجوز ذلك وقال لعبدالخالق محجوب ، نحن كسودانيين يهمنا ان يقول الشيوعيون السوفيات

حين يعودون الى بلادهم ان الشيوعيين السودانيين اناس كرماء وافاضل ، لذلك قررت ان اوجه لكم ولضيوفكم دعوة لتناول العشاء في منزلي .

السيد علي الميرغني ايضا كانت له مبادرات من هذا النوع . هذه الروح المتسامحة والمتحضرة ، هي التي افسدتها الانظمة الشمولية .

وأتذكر ان محمد احمد محجوب حين كان رئيساً للوزراء ، وكان البرلمان يعتزم إصدار قراره بحظر الحزب الشيوعي السوداني ، دعا بعض اصدقائه من قادة الحزب الشيوعي ، أمثال عبدالخالق محجوب حسن الطاهر زروق وعزالدين علي عامر وعبد الرحمن الوسيلة ، وأحمد سليمان وابلغهم ان الموضوع تمت مناقشته على صعيد مجلس الوزراء ، وانه سيعرض على البرلمان ، واقترح عليهم تغيير اسم الحزب والاستمرار في نشاطاتهم كالمعتاد .

****

هكذا كانت تُمارس السياسة في السودان ، بتحضر وباخلاق عالية . وهؤلاء النفر الكرام كانت ممارستهم للسياسة راقية ومتسامحة ، لذلك استطاعوا تجميع الفسيفساء السودانية وصهرها في بوتقة الوطن دون عسف او اكراه ، وقاموا بذلك في صبر وتؤدة وسمو . ومنذ ان كنا صغاراً تابعنا هذا الاسلوب المثالي ، اي محاولة تجميع الناس لا تفرقتهم حتى وان تباينت المقاصد والافكار السياسية . لذا فان الاسلوب المنفر الذي اتبع لاحقا كان شيئاً ضد طبيعتنا .»

الفصل السادس

أصدقائي

لا أعتقد أن هناك شخصا تنطبق عليه دلالات اسمه مثل الطيب ، فهو بالفعل وبالقول «الطيب . . . الصالح » .

لذلك حين اقترحت عليه ، ان نخصص فصلاً من هذا الكتاب ، يتحدث فيه عن أصدقائه ، انفرجت أساريره كثيراً ، واطلق لنفسه العنان في حديث حميمي مفعم بالود والوفاء عن أصدقائه . . .

والذين يعرفون الطيب عن قرب ، يدركون أنه لا يتحدث عن الآخرين إلا بعفة لسان . . . ويسعى دائما لأن يرى الجوانب الخيرة في البشر ، وحتى إذا أبديت

أمامه ملاحظة ، حول نقائص أو مثلبة لشخص بعينه . . . كثيراً ما يسارع إلى محاولة التخفيف من عبارات الذم ، ليلفت انتباهك إلى جوانب أخرى تبدو بالنسبة له خيرة .

إن الطيب لا يكترث مطلقا لمساوئ الناس بل ولا يترك لها حيزاً في دواخله ، لذلك يكاد يكون كل الناس عنده أناساً فضلاء خيرين وطيبين!

وبالنسبة لأصدقائه تراه دائما يركز على الجوانب المضيئة المشرقة . . . يتحدث عنهم بإعجاب شديد ، ويقتفي آثار أفعالهم الخيرة حتى لو باعد بينه وبينهم الزمان والمكان .

و جل من تحدث عنهم الطيب صالح في هذا الفصل لم أتعرف عليهم عن قرب ، لكنني كنت أجد نشوة وأنا أستمع إليه يتحدث في تدفق ، عن خصالهم وذكرياته معهم . وقبل أن أترك القارئ مع هذه النماذج الإنسانية التي حاول الطيب أن يرسم لها صورة عن قرب ، سأسرد واقعة كما عشتها تتعلق بأحد أصدقائه :

كان نهاراً جميلاً في أصيلة المغربية . لكن المساء كان كئيباً !

في النهار كنت قد أكملت تسجيل آخر فصل في هذا الكتاب . كنت سعيداً جداً باكتمال فصول الكتاب بعد سنوات طويلة أمضيتها ، ألح فيها على الرجل ، وهو متحفظ ، اعتقاداً منه أن سيرته الذاتية لا تستحق «إذا وجد الناس في ما أكتبه وكتبته ما يستحق ، فهذا كاف ، بل ربما يكون مدهشاً .»

كان الفصل الأخير من الكتاب هو هذا الفصل ، وقد تحدث خلاله عن كثيرين ومن بينهم حامد الخواض .

كانت المفارقة مؤلمة جداً .

يتحدث الطيب صالح عن صديقه حامد الخواض وفي الوقت نفسه كانت رصاصات قد انطلقت من مسدس سائقه فاردته قتيلا في العاصمة الأردنية!!

بعد أن أكملنا اللمسات الأخيرة على هذا الفصل ، تناولنا الغداء معاً في فندق «وادي المخازن» في أصيلة .

بعد الغداء عاد الطيب إلى حيث يقيم ، وفي المساء اتصل بي هاتفياً ليقول أنه سمع في النشرة الفرنسية للتلفزة المغربية خبراً لم يتبين تفاصيله . كانت نبراته

قلقة ، قال لي أنه شاهد سيدة سودانية تركض وراء سيارة إسعاف ، وسمع اسم الخواص . . .

حاولت قدر المستطاع تحري الخبر . . . ولكنني لم أوفق ، فانتظرنا حتى نشرة المساء وعندها تأكد الخبر ، فقد قتل حامد الخواص مدير اليونسكو بالنيابة في عمان برصاصات أطلقها سائقه ، خلال اجتماع كان يحضره عدد من موظفي المكتب .

اتجه الطيب صالح ، بعد أن سمعنا الخبر من التلفزة ، نحو غرفته ، وهو يجر رجليه ، ويخطو مترنحاً ويردد « لا حول ولا قوة إلا بالله»

كانت الدموع قد بللت وجهه ، وبقيت العبارات جافة ومختنقة في حلقه .

بعد أن صعدنا إلى الغرفة قال لي : منذ أن سمعت الخبر وأنا أدعو الله أن يسلم الخواص ، فقد كان لدي إحساس بأنه قد قتل رغم أنني لم أتبين تفاصيل الخبر . . . ولكنها إرادة الله .

ذرف دموعا ، وامتلأ وجهه كآبة ، وقال لي : الموت غريب حين يقترب من دائرتك .

وأردف : سعى الخواص -رحمه الله- طويلاً لتثبيت السائق ، وهو من أبناء المخيمات الفلسطينية في الخدمة المستديمة ، وبالفعل تم ذلك .

لكن الرجل الذي له 12 طفلا كان يعاني انفصاماً في شخصيته واضطرابات نفسية وعصبية ، عولج منها أكثر من مرة . لذلك ربما اختلط عليه الأمر فقتل الرجل الذي أحسن إليه .

كان خبراً مفجعاً .

وكان حزن الطيب صالح على صديقه كبيراً وعميقاً .

****

والآن ، لنبدأ جولة مع أصدقاء الطيب صالح وصداقاته .

****

«أهتم شخصيا كثيرا بالصداقة ، حقيقة أنني لا اكثر من الاصدقاء لكن من أصادقهم احاول بقدر الامكان الاستمرار في صداقتهم .

الاصدقاء يصبحون جزءً منك وامتداداً لنفسك ، واعتقد ان الصداقة حين تكون متجردة من كل شيء ، اي صداقة فقط ، فانها تصبح افضل من اية علاقة اخرى . افضل بكثير من القرابة او حتى الحب ، لان الصديق امتداد لنفسك وانعكاس لذاتك . الصديق اكثر من أخ ، انك لا تختار اخوتك ، لكنك قطعا تختار اصدقاءك . . .

من حسن الصدف ، ان شقيقي بشير محمد صالح ، وهو رجل قانون ، هو ايضاً صديقي ، لكن هذه مجرد صدفة . .

تاج السر محمد نور :

في بداية حياتي كنت محظوظاً لانه كان لي بعض الاصدقاء من اقاربي . . . وكان من بين هؤلاء وأقربهم الى نفسي صديقي وابن عمتي في الوقت نفسه تاج السر محمد نور ، وقد عمل في ادارة الجمارك السودانية الى ان وصل منصب مساعد مدير جمارك ميناء بورتسودان . .

تاج السر رجل فاضل بمعنى الكلمة . رجل ورع نشأ في بيت طيب ، والدته هي عمتي الوحيدة ، فقد انجب جدي تسعة ابناء وبنتاً واحدة ، هي عمتي «رحمة» ، وكنت شديد الاعجاب بها .

كانت سيدة فاضلة ، ليدي(LADY) كما يقول الانجليز ، تجتمع فيها صفات النبل والكياسة . وكان اشقاؤها ينظرون اليها باحترام شديد . فقد عكفت على حل مشاكلهم ، وحين كانوا يختلفون يلجأون اليها . وهنا تحضرني واقعة عشت تفاصيلها ، بل كنت سبباً فيها .

توفي جدي عام 1966 عن سن متأخرة . وكنت آنذاك اعمل مستشاراً في وزارة الاعلام السودانية . وشرعت في اجراء بعض الاصلاحات داخل الوزارة وفي المرافق التابعة لها ، ومن ذلك الاذاعة . . .

ومن بين البرامج التي سعيت لايقافها ، ولعلني الان اكتشفت انني كنت

على خطأ ، نشرة خاصة كانت تبث من الاذاعة في حدود الساعة الثامنة ليلاً ، وتشتمل على اسماء الوفيات . كل واحد توفي له شخص ، او احد اقاربه يتصل بالاذاعة ويزودهم باسم المتوفي وعنوانه ومكان وفاته واسماء اقرب الناس اليه .

بدت لي هذه النشرة فظيعة جداً . لذلك اقنعت ابراهيم حسن خليل مدير الوزارة ، وهو من الفضلاء الذين تعاملت معهم خلال تلك الفترة ، بالغاء تلك النشرة قلت له لا توجد اذاعة في العالم كله تقدم مثل هذه الخدمة . . .

ولنا ان نتخيل معظم المستمعين يجلسون حول الراديو في حدود الثامنة مساء ليستمعوا لهذه النشرة ، في انتظار ان يسمعوا وفاة احد الذين يعرفونهم .

سعيت لاقناع ابراهيم حسن خليل ، بان هذه خدمة سيئة جداً تقدمها الاذاعة ، . . . ولم يقتنع في البداية ، وكان مثل الآخرين يعتقد انه من المهم جداً معرفة اخبار الوفيات من الاذاعة . . . وبعد جهد جهيد اقتنع بايقاف تلك النشرة .

في تلك الفترة تلقيت برقية (تلغراف) تفيد أن جدي لابي توفي في قريتنا ، وكان أهلي يعتقدون أن خبر الوفاة سيذاع فوراً على اعتبار منصبي في وزارة الاعلام ، لكنني امتنعت عن اذاعة الخبر حرصاً على اقناع المسؤولين بايقاف بث نشرة الوفيات .

سافرت الى البلد لتقديم واجب العزاء ، وهناك التقيت احد اعمامي ويدعى امام وكان رجلاً فاضلاً لكنه صعب المراس ، كنت احبه حباً شديداً ، وجدته وقد إستبد به غضب شديد ، على عدم اذاعة خبر وفاة جدي ، اي والده . وحدث اشكال كبير بيننا بسبب تلك الواقعة ، فبادرت عمتي رحمة ووجهت الينا ، دعوة لتناول الغداء في بيتها وكان جميع اعمامي في البلد ، ونحرت لنا خروفاً ، وطيبت خاطرنا جميعاً .

كانت عمتي رحمة انسانة رائعة جداً ، حزنت عليها حزنا شديداً حين توفيت ، تماما كما حزنت على امي ، وعلى خالتي آمنة التي توفيت قبل فترة قصيرة من وفاة والدتي .

كان تاج السر من نسل صالح ، والده محمد نور طه الفضل كان كذلك رجلاً فارساً وشهماً .

نشأت بيننا صداقة منذ الصغر ، ولم يكن بيننا فارق في السن ، واظن ان الفرق بيننا سنة واحدة فقط . مراحلنا في الحياة متشابهة ، ثم ان تاج السر تزوج من شقيقتي . كما ربطتني صداقة مع اثنين من اعمامي ، كانت سنهما قريبة من سني ، لان جدي تزوج على كبر زوجة ثانية . وانجب منها ثلاثة اولاد ، احدهم يدعى علّوب والثاني يدعى سيد اما الثالث فيدعى عباس وكانوا من اصدقائي . اضافة الى هؤلاء هناك ابن عمي ابراهيم عباس رمضان . . . هؤلاء كانوا أقاربي وأصدقاء في الوقت نفسه .

محمود احمد محمود :

محمود احمد محمود من اصدقائي الاعزاء ، من منطقة كورتي (شمال السودان) . . . لا نلتقي كثيرا فقد فرق بيننا الزمان ، لكن صداقتنا اتصلت واستمرت واعتقد انه من ألمع السودانيين ، له ذكاء خارق واخلاقه عالية . . رجل فاضل . تزاملنا سوياً في مدرسة وادي سيدنا الثانوية . ثم التحقنا بعد ذلك بجامعة الخرطوم ، انتقل بعدها محمود الى مصر ليدرس الزراعة وينال درجة الدكتوراه . . . ولم نلتق منذ فترة طويلة جداً .

مامون حسن مصطفى :

تعرفت على مامون في مرحلة الثانوية . كان يتمتع بذكاء مذهل ، كان مبرزاً جداً في العلوم خاصة في الكيمياء ولو كان استمر في دراسة العلوم لاصبح قطعا من كبار العلماء ، بيد ان والده ألح عليه دراسة الادارة ، كان والده رئيس حسابات ،عمل مع الادارة الانجليزية ، وهذه فئة كانت تعتقد ان العمل في الادارة شيء لا يضاهى . واستجابة لرغبة والده التحق مامون بالخدمة المدنية وتدرج في الوظيفة الى ان وصل منصب وكيل وزارة الحكومات المحلية ، وقد استمرت صداقتي مع مامون الى يومنا هذا .

فتح الرحمن البشير :

فتح الرحمن البشير يمثل بالنسبة لي ولجميع الناس الذين عرفوه عن قرب ، أفضل ما في الخلق السوداني . . .

تزاملنا في المدرسة الثانوية ، قبل ان تقسم الى مدرستين وادي سيدنا وحنتوب . وكنا في فصل واحد . . وهو اصلاً من قرية البرياب في الجزيرة (وسط السودان) ويبدو لي ان حياتنا متشابهة في اشياء كثيرة . . .

زرته في منطقته في الجزيرة ، وجميع الناس الذين تحدثت عنهم في رواية (عرس الزين) والذين يشكلون حكومة البلد ، وجدتهم عنده في البرياب . . . حين تدخل منزل فتح الرحمن والى يومنا هذا تجد عنده وزراء وموظفين كباراً وسياسيين واناساً عاديين . . .

والد فتح الرحمن كان عمدة البرياب ، واهله اهل دين وعلم وقد تحدث عنهم ود ضيف الله في كتابه «طبقات ود ضيف الله» [1] . . . بعد المرحلة الثانوية التقينا مجددا في رفاعة ،حين عملت هناك مدرساً وتزاملنا سوياً في مدرسة شيخ لطفي ، . . وتزوج فتح الرحمن من رفاعه . . وحين انتقلت الى لندن ، اشتغل هو في الحكومات المحلية ، وربما كان دافعه وراء ذلك حبه للخير ، وهو سوداني ابن بلد . . تمتلكه الرغبة في خدمة الناس وربما وجد ان الحكومات المحلية تحقق له هذه الرغبة . . . ثم انه اداري كُفْء .

استقال فتح الرحمن من العمل الحكومي ليعمل في القطاع الخاص ، الى ان اصبح رجل اعمال ناجح جداً ، مثل ما كان ادارياً ناجحاً . فقد عمل ايضاً بالحماس نفسه . ورغم انه قد يصعب في مجال الاعمال الحفاظ على قدر كبير من التعامل الاخلاقي ، فان فتح الرحمن عمل باخلاق عالية متمسكا بحب الخير للاخرين .

ولعل الناس لاتعلم ، ان فتح الرحمن البشير كان دائما يأوي كثيرين من الموظفين الذين فصلتهم الحكومات المتعاقبة ،لذلك عمل معه شيوعيون واخوان مسلمون وكذلك الاتحاديون وآخرون من انتماءات سياسية متباينة . كان هؤلاء

---

(1) كتاب طبقات ودضيف الله يعد من أهم المراجع في تاريخ السودان وتاريخ قبائله ومشائخ ورجالات الطرق الصوفية ، مؤلفه هو محمد النور ضيف الله ولد في عام 1727 وتوفي عام 1810 قام بتحقيق هذا الكتاب الدكتور يوسف فضل حسن .

يفصلون من الخدمة بتهمة عدم الولاء ، ويبادر فتح الرحمن لايجاد عمل لهم في شركاته لانهم من اصدقائه . هذا رجل يحمل معه باستمرا ر اصدقاءه ، لذلك ستبقى شخصيته متفردة وعظيمة .

بعض الناس تتحدث احيانا عن علاقته بالرئيس الاسبق جعفر محمد نميري ، وهي العلاقة التي جعلته يلعب دوراً مهماً واساسياً في محاولة الصلح بين نميري وخصومه من قادة الاحزاب السياسية .

وأعتقد ان علاقته بنميري توطدت بسبب خُلق فتح الرحمن البشير ، لانه رجل اذا صادق كان صادقاً في صداقته . . . وربما وجد فتح الرحمن في نميري جوانب طيبة . . قد لا نعرفها نحن ، وازعم انه في هذا الجانب مثلي . . . شخصياً لا اسأل عن عقائد الناس أو ميولهم الفكرية والسياسية حتى أحبهم أو اكرههم ، لأنني احس ان هذا الامر يدخلني في تناقضات ، على سبيل المثال أنا اعتز بصداقتي للشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ، وهو رجل له جاه وسلطة ونفوذ في السعودية ، هذا الجانب لايهمني في الرجل ، لكن ما اعجبني فيه انني وجدت اصالة وكرماً واريحية ونبلاً وشهامة . .[1]

اذ لايمكنني ان اصادق الناس طبقا لمقاييس ومعايير ايديلوجية او سياسية ، واعتقد ان هذه من الامور التي جلبت لنا البلبلة في العالم العربي ، لاننا اصبحنا نحكم على علاقتنا بالناس بمقاييس ليست لنا .

محمد عمر بشير :

كان محمد عمر بشير رحمه الله من السودانيين الافذاذ ، و من احب الناس الى نفسي . كان من النابهين في زمانه . . . وهو دفعة عبد الخالق محجوب ، كانوا في سنة رابعة في المدرسة الثانوية ، قبل أن تنقل إلى وادي سيدنا ، ونحن في سنة اولى .

والواقع انها كانت دفعة متميزة جدا ، ومنهم كثيرون صار لهم شأن في السودان .

---

(1) يتولى الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري منصب نائب رئيس الحرس الوطني السعودي .

كان محمد عمر بشير في سنوات شبابه شيوعياً ، وربما كانت حياته ستأخذ مساراً اخر ، لولا شهامة بعض الناس ، امثال داؤود عبد اللطيف ، فقد كان من كبار موظفي وزارة الداخلية قبل الاستقلال وكان كما اسلفت يتلقى نسخة من تقارير المخابرات الانجليزية ، حول انشطة الشيوعيين ومنهم محمد عمر بشير ، فكان يلقي تلك التقارير في سلة المهملات . . . بل واكثر من ذلك كان يخطرهم مسبقا باماكن المراقبة حتى لايجتمعوا فيها .

كان محمد عمر في كثير من تفاصيل حياته يهمه أمر بلده ، لذلك ستجده يستقطب الناس من اقاصي العالم لانجاز دراسات عن السودان حين كان مسؤولا عن الدراسات العليا في جامعة الخرطوم . . .

في أواخر ايامه انشأ جامعة امدرمان الاهلية ، رغم ان النظام [1] حاربه كثيرا وسعى لعرقلة المشروع ، واستطاع انشاء الجامعة طبقاً لاسلوب رائع ، اذ ارتبطت الدراسة فيها بحاجيات البلد . .

فاذا كانت جامعة الخرطوم ، جامعة للصفوة ، وربما انشئت لهذا الغرض ، فان الجامعات الاخرى اصبحت متساهلة جداً من الناحية العلمية . . لذلك بادر محمد عمر بشير لانشاء جامعة تجمع بين شيئين : الاهتمام بالبيئة والواقع المحلي وفي الوقت نفسه اعتماد مستوى اكاديمي ممتاز .

ويحمد لمحمد عمر بشير انه لم يخرج من السودان ، ومن مواقفه النبيلة وقفته الى جانب جمال محمد احمد في سنواته الاخيرة ، فقد كان جمال حزيناً ومكتئباً ويعتصره الألم لواقع وحال السودان ، كان يرى ان البلاد تسير نحو الهاوية . . . فوقف محمد عمر الى جانبه حتى آخر لحظة . .

وبوفاة محمد عمر بشير فقدت صديقاً قل نظيره . .

---

(1) عملت الجبهة القومية الإسلامية الحاكمة في السودان بكل السبل على عرقلة استمرار هذه الجامعة لكن محاولاتها باءت بالفشل .

عبد الوهاب موسى

درس عبد الوهاب موسى في بخت الرضا ، والذين درسوا في بخت الرضا كانوا يتميزون بطابع خاص ، تتسم تصرفاتهم بالنضج والاعتماد على الذات . . وعبد الوهاب من منطقة الجزيرة (وسط السودان) من قرية قريبة من ابو عشر تسمى (دلقا) . واهله يمثلون اهل السودان في اصالتهم ، حين تذهب للقرية تجد من يستقبل الضيوف واولئك الذين يقفون في الشدائد هاجسهم مساعدة الاخرين ومؤازرتهم في الظروف الصعبة . . . شخصيات مثل شخصية محجوب كما صورتها في عرس الزين وموسم الهجرة .

التحق عبد الوهاب بجامعة الخرطوم (كلية الاداب) ، ودرس الادب الانجليزي واهتم كثيراً بالادب العربي ، ثقافته موسوعية ومطلع جداً ، ورغم ذلك ظل كما هو حتى لهجته وهي لهجة اهل الجزيرة لم تتغير «ودعرب » كما نقول في السودان . . .

عمل في الخدمة المدنية وأصبح مساعداً لمدير مكتب العمل ، وكان آنذاك محمد توفيق ، لكنه اختلف مع الوزير ، واتجه للعمل في القطاع الخاص ، وافتتح مكتباً استشارياً . . .

ورغم ميوله الادبية ، فانه رجل مخترع ، فقد اخترع آلة لانضاج الكسرة بدل الدوكة . . ولم يقف عند هذا الحد بل انشأ مصنعا لانتاج الكسرة . . .[1] .

وعبد الوهاب متعدد الاهتمامات ، ومن بين ذلك اهتمامه بالتراث ، لذلك تجد في بيته كمية هائلة من تسجيلات الاغاني والامداح النبوية والدوبيت . . والواقع انني حتى الان لا اعرف لماذا لم يعين عبد الوهاب موسى وزيراً في الحكومات التي تعاقبت على السودان . . .

---

(1) يأكل السودانيون الكسرة بدلا من الخبز ، في أغلب الاحيان ، وهي عبارة عن فطائر رقيقة تصنع من الذرة ، اما الدوكه فهي قطعة من الحديد

منصور خالد

تصادقت مع منصور خالد منذ فترة الدراسة في الثانوي . . . وأنا معجب به منذ تلك الأيام . . . كنت أسبق منصور بعامين . . . وكان من المبرزين في مدرسة وادي سيدنا الثانوية . لديه جرأة عقلية واضحة وقدرة على ان يسبح دائما عكس التيار ، واظن ان ما يفعله الآن هو بسبب هذه الجرأة وحبه الجارف لكي يسبح عكس التيار ، ومنصور رجل منظم ومنتج ، فهو ليس سياسياً فقط لكنه كاتب مهم جداً وله جاذبية عقلية لا تنكر . . .

حسن ابشر الطيب

حسن ابشر الطيب اصغر مني سناً ، تصادقنا واحببته جداً ، وصادف أنه ابن عمة مأمون حسن مصطفى .

تعرفت على حسن ابشر الطيب في الستينات ، وهو من أطيب الخلق الذين تعرفت عليهم ، ورغم انه من بربر التي تعد من الحواضر لكن فيه طيبة وبساطة اهل القرى ، دمث ، يتعامل مع الناس بمحبة . .

قام حسن ابشر الطيب بدور انساني كبير جداً ، في مؤازرة الشاعر الكبير محمد المهدي المجذوب في سنواته الاخيرة ، وكان سنده الاساسي في مصاعب الحياة ، ولولا حسن ابشر الطيب لما بنى محمد المهدي المجذوب منزلاً خاصا به . .

كان المجذوب يسكن في إحدى دور الحكومة التابعة للسكك الحديدية في الخرطوم ، منزل متواضع ورغم ذلك طلب منه اخلاء ذلك المنزل . . . فسعى حسن ابشر الطيب حتى حصل له على قطعة ارض ، وتكفل بتجهيزها بما يستلزم من الطوب والاسمنت والحديد وكل ادوات البناء الى ان اكتمل المنزل . . .

كما ان حسن ابشر هو الذي طبع جميع اعمال محمد المهدي المجذوب ولولاه لضاعت اشعار هذا الشاعر الكبير .

درس حسن ابشر الطيب في كلية الاداب جامعة الخرطوم وتخصص في الادارة ، وتولى عدة وظائف من بينها وظيفة ملحق ثقافي في سفارة السودان في

واشنطن ، ثم تولى منصب عميد اكاديمية العلوم الادارية في الخرطوم . . . وعمل وزيراً في أواخر عهد النميري .

ويعمل حالياً مستشاراً لوزير الخدمة المدنية في سلطنة عمان . . .

وهو من الناس الذين احببتهم .

محمد ابراهيم الشوش

تربطني صلة قرابة مع محمد ابراهيم الشوش ، فهو أصلاً من «ركابية مورا» وهم فرع من «ركابية العفّاض» أهلنا . سبقته في مدرسة وادي سيدنا الثانوية بسنتين . كان آنذاك صبياً صغيراً ونحيفاً جداً . . . وسكنا في داخلية واحدة . وهو من السودانيين النابغين والعلماء النابهين ، ولكن الناس قد لايدركون ذلك اذا حكموا عليه بسلوكه الفوضوي غير المنظم . . فوراء هذه الفوضى عقل منظم ونبوغ فكري كبير . . .

درس في كلية الاداب بجامعة الخرطوم ، وكان من أصغر الذين نالوا شهادة الدكتوراه ، فقد حصل على الدكتوراه وسنه لم تتجاوز 25 عاماً . حين جاء الى لندن لتحضير الدكتوراه سكنا سوياً ، وخلال تلك الفترة تعرفت عليه عن قرب ، وهو انسان طيب« وحنّين »كما يقول السودانيون لديه خصال سودانية متعمقة في اغواره . . . رغم انه تغرب مثلي وتزوج انجليزية ، ثم كندية . . وهو يعيش حاليا في كندا ، لكنه يظل سودانياً اصيلاً . . . انسان متفتح واعتقد انه لو انتظم في الكتابة لاصبح من كبار النقاد في العالم العربي ، لكن مشكلته انه موزع الاتجاهات والنشاطات ولديه طاقة بركانية لا يحسن إستغلالها .

رجاء النقاش

تعرفت على رجاء النقاش عام 1970 ، وهو من اصدقائي المصريين الذين احبهم جداً . كتب رجاء النقاش مقالة عني في مجلة المصور المصرية نوّه فيها برواية موسم الهجرة الى الشمال ، واعتقد ان تلك المقالة ساهمت كثيراً في التعريف بالرواية . . . كانت جرأة كبيرة منه ان يصفني – وكنت لا اعرفه ولايعرفني –

بانني عبقري روائي والواقع انني دهشت أنذاك لهذا الوصف ، واتذكر انني تحدثت مع احد اصدقائي المصريين وقلت له ان رجاء ربما يكون قد بالغ في هذا الوصف ، لو كان قد إكتفي « بموهبة » لكانت معقولة . . واعتقد انه انفعل بالرواية فكتب ما كتب . . . وفي كل الاحوال كانت جرأة كبيرة منه . . .

رجاء النقاش من بين المفكرين والنقاد المصريين الذين لديهم ادراك عميق ، إن ريادة مصر لا تعني إهمال الآخرين ، نحن نؤمن بالطبع أن مصر رائدة وهي مركز الثقل في العالم العربي ، لكن هذا لايعني أن مصر وحدها تنتج باستمرار . رجاء من الذين ادركوا ضرورة التعرف على ما للعرب الآخرين ، كما ان لديه ادراكاً عميقاً جداً باهمية السودان كشقيق وتوأم لمصر . .

ولانني وصلت العالم العربي ككاتب عن طريق لندن وبيروت ، لم اكن معروفا في مصر ، ولكن بتأثير من رجاء النقاش اعيد طبع موسم الهجرة الى الشمال ضمن سلسلة كتاب دار الهلال . .

اعتقد ان علاقة البلدين اكبر بكثير من ان تتعرض للتلاعب ، الى حد ان تطرد مصر سودانيين من اراضيها ، او يطرد السودان مصريين من الخرطوم . . . هذا عمل فظيع . . . ، وارى ان المفكرين في البلدين لهم دور اساسي ، اذ لابد ان يعكفوا على دراسة خصوصية العلاقة بين البلدين ، ويتعمقوا في اسباب مدها وجزرها ويزودوا الحكام ببعض الافكار التي تعين على ترسيخ مفهوم الشقيق التوأم ، فلا يكفي ان نقول ، نحن اشقاء وأحبة وما الى ذلك من الكلام العاطفي . . . ، واعتقد ان رجاء النقاش احد الذين يدركون هذا الامر إدراكاً جيداً .

توطدت علاقتي مع رجاء في الدوحة حين اصبح رئيساً لتحرير مجلة «الدوحة » وتعارفنا على الصعيد العائلي ، وتعرفت على زوجته الدكتورة هانية وهي سيدة فاضلة . . واستمرت علاقتنا واتصلت .

محمود سالم

محمود سالم من اصدقائي الذين اعتز بصداقتهم . تولى رئاسة تحرير مجلة الاذاعة والتلفزيون المصرية ، وبادر الى نشر رواية عرس الزين على حلقات في المجلة . .

توطدت علاقتي مع محمود سالم بعد ان تقابلنا ووجدته انساناً شهماً وفاضلاً ونظرا لان محمود كان من الشباب الناصري ، فقد وضع هو ورفاقه جميعاً ايام السادات على الرف ،لذلك سيتجه محمود سالم بعد ذلك لكتابة ادب الاطفال ويصبح من كبار الكتاب في هذا المجال .

عبد المنعم سليم

درس عبد المنعم سليم الحقوق ثم عمل في مصلحة الضرائب المصرية الى ان وصل الى درجة مدير عام . . لكنه رجل فنان وكاتب مسرحي ، تعرفت عليه حين جاء مع زوجته الدكتورة هدى حبيشة الى لندن في اوائل الستينات ، وكانت زوجته متخصصة في الادب الانجليزي ، واعتقد انها من افضل الذين فهموا الادب الانجليزي في العالم العربي . . . واستمرت صداقتي مع عبد المنعم سليم وزوجته وتوثقت علاقتنا مع مرور الايام .

عبد الرحيم الرفاعي

تعرفت على عبد الرحيم الرفاعي في لندن ، وربطت بيننا صداقة عميقة خاصة واننا سكنا سوياً . . . بعد لندن انتقل الى سويسرا وتزوج سويسرية ويعيش حالياً هناك والرفاعي مصري اصيل جداً ، اخلاقه عالية وفيه من النبل الشيء الكثير .

كان شاهداً في زواجي ، وهو وزوجته الفاضلة هايدي بمثابة اهل لي ولعائلتي .

صداقات ومعارف في قطر . . :

اتاحت لي سنوات عملي في قطر التعرف على كثيرين ، ووجدت هناك اناساً فضلاء جداً . . . منهم الفاتح عووضة ، وهو من تنقسي (شمال السودان) من آل حمور وبيننا وبين الحموراب صلة قرابة ومصاهرة . . والفاتح من كبار رجالات القضاء في السودان ، واظن انه يستحق ان يكون رئيساً للقضاء . .

والى ذلك فالفاتح من الشعراء ، واتذكر حين كنا في المدرسة الثانوية قال عنه الشاعر السوداني الكبير المرحوم احمد محمد صالح : « مازال هذا الفتى يهذي حتى قال الشعر» ، وهذه جملة قيلت عن عمربن ابي ربيعة . .

وقد اسس الفاتح عووضة القضاء المدني في قطر ويحظى بتقدير كبير هناك . . .

ومن اصدقائي في الدوحة عبد المنعم مكي ، وهو من قنتي (منطقة مروي) وهو ايضا رجل قانون . . ابن بلد . . وشقيقه عبد العاطي صديق شقيقي بشير . وتجددت صلتي في قطر كذلك مع بروفيسر عثمان سيد احمد من منصوركتي (منطقة مروي) عمل استاذاً للتاريخ في جامعة الخرطوم ، ثم انتقل للعمل كاستاذ في جامعة قطر وهو ايضا من الذين عينهم غيري في الوزارة دون رغبتهم وقد تقلد وزارة التربية والتعليم . .

وفي قطر تعرفت كذلك على محمد سعيد سيد احمد من المحس (اقصى شمال السودان) هاجر اهله الى امدرمان في وقت مبكر . . درس قبلنا وتخرج من كلية غردون (جامعة الخرطوم لاحقا) . . شيخ عرب ورجل شهم ، ونظرا لانه من الشمال وعاش في امدرمان كما عاش في مصر ، فقد جعل منه ذلك ، شخصية مزيجة من ابن البلد مع رؤى عميقة وتحضُّر وهذه خلطة احبها جداً . تدرج في الوظائف الى ان وصل منصب مدير الاعلام الخارجي ثم اغترب .

وهو من الكفاءات التي خسرها السودان . . . في كل مرة يقولون في السودان انهم فجروا ثورة . . ولكن الاطر والكفاءات التي يمكن ان تعتمد عليها لبناء دولة عصرية كلها تركت السودان اذن كيف يمكن بناء هذه الدولة . .؟

جاء محمد سعيد الى قطر وعمل في قسم الصحافة الاجنبية في وزارة الاعلام . . وتوطدت علاقتنا الى ان توفي رحمه الله .

فى الدوحة تعرفت كذلك على الدكتور درويش الفأر ، مصري من العريش ، والى عهد قريب ، كان يتولى ادارة المتحف القطري ، عالم جيولوجي . . ولانه من سيناء فهو يجمع ما بين عنصر البداوة والتحضر . . واهل سيناء همزة وصل ما بين مصر وفلسطين مثل اهل النوبة بالنسبة لمصر والسودان ، عمل والده في سلاح الهجانة ، وكان أغلب عسكر هذا السلاح في مصر من السودانيين لذلك تعرف عليهم وعلى بيئتهم الثقافية . . وهو عالم يجمع ما بين الادب والعلم ، وابن بلد اصيل .

وفي قطر التقيت مجددا بشيخنا الفنان الكبير ابراهيم الصلحي ، ونحن اصدقاء منذ المرحلة الثانوية وكنا في فصل واحد . .

ولابد ان اذكر من الذين تعرفت عليهم في قطر اخي المرحوم الدكتور محمد ابراهيم كاظم ، فقد كان يعمل هناك كمدير للجامعة . . . ثم عملنا سوياً في منظمة اليونسكو ووجدت فيه رجلا عظيماً . . جديراً بالاحترام والتقدير رحمه الله .

اصدقاء في عمان

خلال فترة عملي في عمان (الاردن) مع اليونسكو تعرفت على ثلة من الاخوة الكرام ، من بينهم المرحوم حامد الخواض من الجعليين وآل الخواض اصلاً من كبوشيه (شمال الخرطوم) . كان حامد الخواض شيخ عرب . . . وقتل في حادث مؤلم في العاصمة الأردنية عمان اثناء عمله كمدير مكتب اليونسكو بالنيابة . كان رحمه الله يجمع ما بين العلم والفن ، فهو مهندس معماري ورسام في الوقت نفسه ، درس في انجلترا وتزوج المانية . .كنت امازحه فاقول له لقد دخلنا في قضية خاسرة ، حين لم نتزوج من السودان ، لان زوجاتنا ليس لهن دلكه او بخور ولايعرفن طهي الويكة والكسرة [1] . . . لذا فزواجنا كان زواجاً ماسخاً . . .

وكان يضحك ملء شدقيه رحمه الله .

---

(1) الدلكة مجموعة من العطور تمزج مع دقيق القمح ، و تستعملها النساء في السودان لترطيب بشرة الجلد أما الويكة فهي عبارة عن مسحوق البامية ، والكسرة سبقت الإشارة إليها .

وفي عمان تعرفت كذلك على عبد الواحد عبد الله يوسف ، اصغر مني سناً ، واظن انه من الشايقية ، نزح اهله الى القضارف (شرق السودان) ، وعمل في معهد الدراسات الاضافية التابع لجامعة الخرطوم وتولى لفترة قصيرة منصب مدير اذاعة امدرمان . . . سافر الى كندا ولإنجز الدكتوراه ، وهو شاعر غنائي ، يمتلىء حنيناً للسودان المتسامح الطيب ، لذلك كنت اجد لديه تسجيلات غنائية وموسيقية من الغناء القديم . .

وفي عمان تعرفت كذلك على هاشم ابو زيد الصافي من سنكات (شرق السودان) لكن اصله من الشايقية ، تخصص في تعليم الكبار واصبح رئيساً لجهاز محو الامية في السودان ثم في المنظمة العربية . .

صلاح احمد محمد صالح .

سبقني صلاح بسنة دراسية في مدرسة وادي سيدنا الثانوية ، وهو ابن احمد محمد صالح الشاعر والسياسي الكبير ، والذي اصبح عضواً في مجلس السيادة (مجلس رئاسة الدولة) بعد الاستقلال . .

حين كنت في المدرسة الثانوية كنت احتقر جداً الفن والغناء ربما بتأثير البيئة . . وكنت انظر باحتقار لزملائي من الطلاب الذين يغنون في المناسبات او يمثلون في المسرحيات .

اعتاد صلاح على الغناء في المناسبات وكان يردد دائما« منلوج » يتحدث عن « التورماي » . . وكنت اقول مع نفسي : «هذا إنسان عوير » .[1] كان يرغب في ان يتخصص في السينما ، وعندما كنا في المدرسة الثانوية كان يحفظ جيداً اسماء الممثلين . سافر صلاح الى مصر رفقة خالد العجباني من أجل هذا الغرض . . وأراد كما عرفت لاحقا ان يصبح ممثلاً او مخرجاً أو أي شيء له علاقة بالسينما ، لكنه لم يستطع تحقيق تلك الامنية . . . فالتحق بالاذاعة ، وهو يملك صوتاً اذاعياً نادراً . . . وبرز في الاذاعة السودانية ، وتقرر إيفاده ليتدرب في هيئة الاذاعة البريطانية (BBC)

وحين جئت الى لندن وجدته قد اصبح مذيعاً كبيراً . . .

---

(1) عوير لفظة سودانية تطلق على الشخص الذي يتصف بالغباء والهبل .

وعندما سمع صلاح ان هناك سودانياً قادماً للعمل في هيئة الاذاعة البريطانية بالقسم العربي وكانت هذه الوظيفة تعد آنذاك شيئا كبيراً . . . حاول ان يتذكر من هو هذا القادم الذي يدعى الطيب محمد صالح . . وعندما وصلت الى مبنى الاذاعة لاول مرة ، وكانت لي آنذاك شوارب كثيفة ، ورآني صلاح ، اخبرني فيما بعد انه تضايق جدا وقال في نفسه : من الذي أتى بهذا القروي المتخلف الى اذاعة لندن . .!!

فقد تذكر أننا تزاملنا في مدرسة وادي سيدنا ، وكنا نحن الطلاب القادمين من شمال السودان ، نسكن في داخليتين متجاورتين هما كتشنز ونيوبولد على ما اذكر وكانت ادارة المدرسة تنظم دورياً مسابقات لانظف حجرات ، كنا نحصل دائما على جائزة النظافة . . فيتندر علينا صلاح وزملاؤه من ابناء الخرطوم وامدرمان ، فيقولون هؤلاء يحصلون على جوائز نظافة الحجرات لان اباءهم اصلا من الخدم والكناسين .

ثم توطدت علاقتي وصداقتي مع صلاح وسكنا سوياً في لندن ، ولانه من ابناء امدرمان الذين يمتلكون قدرة مذهلة على التكيف والتعرف على الناس والمجتمع ، وجدت ان صلاح قد اندمج بكيفية سريعة مع مجتمع هيئة الاذاعة البريطانية بل ومع مجتمع لندن . . .

لذلك كان يقال في بداية فترة عملي في هيئة الاذاعة البريطانية . . هذا هو الطيب صالح الذي يسكن مع صلاح وكنت آنذاك امازحه قائلا : سيأتي يوم يقال فيه هذا هو صلاح صديق الطيب صالح .!!

اصر والده احمد محمد صالح ان يترك صلاح الاذاعة والفن ، ويلتحق بالعمل الديبلوماسي وبالفعل تدرج في السلك الوظيفي الى ان اصبح سفيراً .

وتمر السنوات ، وينظم حفل كبير في الخرطوم ، بمناسبة عرض فيلم « عرس الزين» الذي استوحاه المخرج الكويتي خالد الصديق من الرواية .حضر الحفل عدد كبير من الوزراء ونائب رئيس الجمهورية وكنت جالساً الى جانب صلاح في القاعة فالتفت الي حين رأي ذلك الحشد من المسؤولين ، وكبار رجال الدولة . وقال مازحاً ، يبدو فعلا ان نبوءتك اصبحت حقيقة . . فانت اليوم هو النجم وانا صديقك !!

والواقع انني شديد الاعتزاز بصداقتي مع صلاح احمد محمد صالح فهو انسان ذو خلق نادر وذكاء وقاد وروح مرحة ، وهو وعبد الرحيم الرفاعي الى اليوم الصق الناس بي ، فقد عشنا معا أيام الشباب في لندن بسرائها وضرائها .

****

كنت أحب أن أحدثك مطولا عن أصدقاء آخرين أعزاء ، عرفتهم منذ أيام الدراسة في وادي سيدنا أمثال سيد أحمد عبد الله عكود ، من الشايقيه العريقين الذين نزحوا الى ام درمان . وقد تقلد مناصب كبيرة في الدولة ثم تحول إلى الأعمال الحرة ، وحسن بشير الذي وصل الى منصب مساعد محافظ البنك المركزي ، ويشهد له أنه أعترض كتابة على وضع صورة نميري على أوراق العملة وكلاهما كانا اداريين نزيهين نزاهة غير عادية . وسيد احمد الحردلو الدبلوماسي الشاعر المبدع الذي جمع بين دماء الشايقية والدناقلة ، فأبوه من تنقاسي وأمه من ناوا [1] وهو أصغر مني سناً ربما بعشر سنوات ، لذلك لم نلتق أيام الدراسة لكن صلتي به توثقت في لندن حين كان سكرتيراً أول في السفارة . وهو شاعر موهوب وسوداني أصيل شديد الحب للسودان . وهو من ضحايا نظام الجبهة القومية الاسلامية فقد عزلوه من منصبه حين كان سفيراً للسودان في صنعاء .

وعلى أبو عاقلة أبوسن الذي عرفته في لندن ، فقد عمل معنا فترة في البي . بي . سي . ثم عمل في وزارة الخارجية ، وعاد الى السفارة في لندن ، وهو أديب مرهف الحس ، وراوية للشعر ، وحافظ لكثير من شعر أهله الشكرية ، الى جانب ذكاء شديد ، ودقة ملحوظة ، وهو من أوائل من أطلعوا على محاولاتي القصصية .»

---

(1) قريتان من قرى شمال السودان



الفصل السابع

الكتابة : البشرية تائهة وانا تائه معها !

لم تشكل الكتابة هاجساً للطيب صالح ، فهو قد كتب بالصدفة ، وفوجئ بأن ما كتبه نال إعجابا لم يكن يتوقعه . . . ولم يسع إليه .

كثيرون لا يعرفون أن الطيب صالح كان يفترض أن يكتب شعراً لا نثراً ، وهو شغوف بالشعر إلى حد كبير ، ولعله من الذين قرأوا الشعر العربي وتذوقوه تذوقاً كاملاً ، وقد كتب بالفعل بعض الأشعار جاءت مبعثرة هنا وهناك في رواياته ، دون أن ينسب ذلك إلى نفسه . . .

أما بالنسبة للقصة والرواية فإن الطيب يلح دائما أنه كتب عن طريق الصدفة « لم أرغب كما قلت وأقول دائماً أن أكون كاتباً . . . لقد جرى قلمي فكتبت . . . هذه هي كل الحكاية» .

وحين سألت الطيب عن طقوس الكتابة عنده وطريقته في الكتابة . . . . متى يكتب؟ . . . كيف يكتب؟ . . . واجواء الكتابة لديه قال ضاحكا :« يا زول طقوس شنو . . . دي مسألة جاءت هكذا وخلاص .»

وقد كتب الطيب صالح أشعاراً أخرى يقول انها في إطار الإخوانيات ، لكنه لم يرغب في نشرها .

أما المقالة فقد كتبها تحت إلحاح وبطلب من عثمان العمير حين كان رئيسا لتحرير (المجلة) ، وواصل كتابتها بالحاح أيضا من عبدالرحمن الراشد الذي تولى بعد العمير رئاسة تحرير (المجلة) .

ومازلت أذكر حين قال لي مرة : «حقيقة لا أعرف كيف يواظب بعض الكتاب على كتابة مقال أو عمود يومي . . . فقد ايقنت ومن خلال كتابتي لمقال أسبوعي في مجلة «المجلة » أن هذا عمل مرهق للغاية .»

والواضح والمؤكد أن مزاج الطيب صالح توافقه الكتابة الروائية وليست كتابة المقال . لذلك سنلاحظ بوضوح ، أن بعض مقالاته هي في الواقع ذات نفس روائي ومن ذلك تلك السلسلة الطويلة التي كتبها عن صديقه منسي ، والتي تعد بحق عملاً روائياً متكاملاً .

. . . ولكن كيف يرى الطيب صالح الكتابة؟

هنا اقتبس كلاماً أجاب فيه على هذا السؤال :

«أثناء الكتابة تسكن الكاتب شخصياته التي يراهن عليها ، وقد يحصل أن يحبها أو يكرهها ، ويقوم بينه وبينها جدل ما أو حوار ، بل حتى خلاف . ويوجد الكاتب دائما في مأزق ، فهو يريد ويسعى إلى أن تسير الشخصيات في اتجاه ما ، والشخصيات تجره في طريق آخر ، وهذا ما يجعل الكتابة تزداد اغراء . وقد تنبع شخصيات لم تكن بالحسبان أثناء عملية الكتابة . لكن هذا لا يعني أنني أخلق شخصياتي بدون هدف ، بل أتحكم في جعلها تؤدي شيئامعينا .الشخصيات–بهذا

المعنى- ليست دمى متحركة ، وعلاقتي بشخصياتي الروائية هي علاقة جدلية من خلال فعل الكتابة ، هذه العلاقة الجدلية هي علاقة تفرضها الحياة التي نحياها ، هناك ما نريده ، وهناك ما نجد أننا مضطرون للقيام به .»

إننا نلاحظ بوضوح كم هي بسيطة ومعقدة في الوقت نفسه علاقة الطيب صالح بالكتابة . . . . أو علاقتها به ، وفي هذا الفصل الأخير يتحدث الطيب باستفاضة عن الموضوع ، ويسلط الضوء على جوانب ظلت خافية أو حبيسة في دواخله فيقول :

****

«لم أرغب أن أكون كاتباً في يوم من الأيام ، مثل ما لم تكن لديّ أية رغبة في نشر ما كتبته . وقبل أن أغادر السودان إلى لندن كنت قد كتبت محاولتين في القصة القصيرة أو شيئاً من هذا القبيل ومزقتهما وانتهى الأمر عند ذلك الحد .

وعلى رغم أن ميولي كانت أدبية فقد دخلت كلية العلوم - كما أسلفت- خاصة أن مجتمعنا السوداني في تلك الفترة كان يحتاج إلى أناس يساهمون في حل مشاكله ، وهي مشاكل التنمية والبناء .

كان الناس يفهمون لماذا تصبح طبيباً أو مهندساً أو بيطرياً أو زراعياً أو عالماً ، لكن أن تصبح كاتباً فهذا غير مفهوم . . . حتى الفكي (الفقيه) في القرية على أهميته لم تكن له أية وضعية اجتماعية محددة فهو ليس مثل المزارع .

وعلى رغم أنه كان يجب علي مجاراة ميولاتي الطبيعية وأدرس الأدب فإنني لم أفعل ذلك تحت ضغط البيئة والمجتمع وعاداته . . . لذلك ستأتي فكرة الكتابة لاحقاً بمحض الصدفة . . . ثم إنني لم أحب مطلقاً أن يقال إنني كاتب . . . .

عندما جئت لندن في فبراير (شباط) 1953 ، وجدتها تعيش تحت وطأة شتاء من أفظع الشتاءات التي عرفتها انكلترا . . . كان برداً قارساً ، ما زلت حين أتذكره تصطك أسناني . . . .

وآنذاك بدأت ألوم نفسي لوماً شديداً ، كنت أقول : لماذا جئت أصلاً إلى هذا البلد . . . وما هي هذه المصيبة التي رمتني وساقتني اليه . . .

في تلك الفترة وتحت وطأة الحنين إلى أهلي وبلدي وعشيرتي كتبت قصة قصيرة أسميتها «نخلة على الجدول» كان ذلك عام 1953 ونشرت في وقت لاحق ضمن المجموعة القصصية «دومة ود حامد» .

قصة بسيطة كتبتها ببساطة شديدة جداً .

والآن حين أعود إلى قراءتها أدرك إلى أي مدى كنت تحت تأثير حنين جارف إلى وطني . . . كانت القصة تعبيراً عن حنين للبيئة ومحاولة لاستحضار تلك البيئة . . .

اطّلع على القصة معاوية الدرهلي وهو أحد أصدقائي الفلسطينيين فأعجبته كثيراً ، وأذاعها من إذاعة لندن ، ثم نشرت في وقت لاحق . . .

بعض الانجليز المستشرقين أعجبتهم تلك القصة وقالوا لي« أنت كاتب» . . . ، ودهشت لذلك ، بل ان دهشتي ازدادت حين قال لي معاوية الدرهلي ، أن أسلوبي فيه ملامح من أسلوب جويس . . . وبدا لي أن هذا كلام كبير جداً . . .!

بعد «نخلة على الجدول» بقيت سبع سنوات لم أكتب شيئاً . . . كان الأمر بإيجاز شديد ، أنني رغبت في إقامة جسر وعالم تركته دون سبب واضح ، وبدا لي أن الحكاية آنذاك إنتهت عند هذا الحد .

بعد سبع سنوات كتبت قصة أخرى أسميتها «حفنة تمر» ثم كتبت «دومة ود حامد» ، ونشرت في مجلة كانت تصدر في لندن اسمها «أصوات» يحررها المستشرق الانكليزي دينيس جونسون ديفيس مع الصديق المصري الراحل ادقار فرج . . . وبادر دينيس جونسون ديفيس إلى ترجمة «دومة ود حامد» إلى الإنجليزية وأرسلها إلى مجلة انكونتر (Encounter) وكانت أكبر مجلة أدبية تصدر في بريطانيا في تلك الفترة . . . ولشدة دهشتي قبلت المجلة القصة ونشرتها . . .!!

وسرّ جونسون ديفيس سروراً بالغا بها ، وعندما نشرت «دومة ود حامد» في مجلة انكونتر ، ألح علي بضرورة مواصلة الكتابة . . . ولا أخفي أنني تعجبت لهذا

الطلب ، قلت له «مواصلة الكتابة يعني أن أتحول إلى كاتب . . . هذه مزحة ، لقد كتبت ما عندي . . . وخلاص!! » .

في تلك الفترة زرت جامعة اكسفورد وكان لي فيها بعض الأصدقاء منهم الأخوان حسن بشير وكرار أحمد كرار رحمه الله ، وهناك التقيت علماء من إحدى كليات اكسفورد اسمها سانت انتوني (Saint Antony) ، كانت مجلة انكونتر قد نشرت في العدد نفسه الذي نشرت فيه «دومة ود حامد» قصة للكاتب الأمريكي نورمان ميلر ، وهو من أشهر الكتاب في أمريكا . . . وأثناء تناولنا وجبة الغداء قال لي أحد الأساتذة : «هل تعلم أن نورمان ميلر يمكن أن يتعلم منك؟»

صعقت حين سمعت هذا التعليق . . . وتساءلت :« يتعلم مني أنا؟»

فأجاب بالإيجاب ، وراح يتحدث عن مميزات القصة ، وقال أنها قصة كلاسيكية فيها بساطة شديدة ، وجوانب فنية غير مطروقة . . .

مرة أخرى أسمع كلاماً كبيراً جداً .

قلت مع نفسي أن دكاترة الأدب هؤلاء ربما يستهويهم أن يأتوا بمصطلحات وجُمل لا أحد يعرف مدى صحتها!

ولكنهم ، ولدهشتي الشديدة ، كانوا يتحدثون في منتهى الجدية . . .

إستغربت في قرارة نفسي من الصدى الذي وجدته القصة ، وقلت ربما ستستمر فعلاً حكاية الكتابة هذه . . .

بعد ذلك كتبت «عرس الزين» ، والمفارقة أنني كتبت هذه الرواية وتركتها ، ولم تنشر إلا عام 1964 . . .

كتبت بعدها «موسم الهجرة إلى الشمال» ، التي نشرت في مجلة «حوار» في بيروت عام 1966 وكان يحررها الشاعر الفلسطيني الراحل توفيق صائغ .

وبالنسبة لموسم الهجرة كنت كلما أفرغ من فصل اسلمه لدينيس جونسون ديڤيس ، ليتولى ترجمته . . . كان قد ترسخ لديه اقتناع بأنني كاتب جيد . . . وبعد أن فرغ من الترجمة سلمها إلى دار النشر «هاينمان» ، وهي دار نشر انجليزية كبيرة ومحترمة ، وصدرت « موسم الهجرة الى الشمال» عن هذه الدار الكبيرة .

توبيخ الشهرة

هكذا بدأت حكايتي مع الكتابة واستمرت ، لكنني كنت أكتب دائماً تحت ضغط إقامة جسر مع بيئتي الأصلية ، كما تولد لديّ إحساس بمسألة أخرى ، فقد ظل يراودني شعور بأنني تنكرت لعالم أحبه حباً شديداً ، خاصة أنني كنت ملتحماًبالبيئة التحاماً تاماً ، . . . كنت منغرساً في بيئتي ، ثم خرجت من تلك البيئة ، والله أعلم إذا كنت محظوظاً أو سيئ الحظ فمن المؤكد انني خرجت دون مبرر حقيقي .

كان يمكن أن أظل في السودان وأتابع دراستي هناك وأعمل في بلدي ، وأقنع بما أحصل عليه ، لأنني لم أتغرب أبداً لأجمع المال أو أبني منزلاً وما إلى ذلك . خرجت في وقت لم يكن فيه الناس يخرجون ، وهكذا لازمني إحساس أنني تنكرت لبيئتي . . . ولدي اعتقاد أن معظم المتعلمين السودانيين خانوا الأمانة بشكل أو بآخر ، اذ اننا لم نوفِ أهلنا حقهم . فإذا تأملنا الخرطوم الحديثة سنلاحظ أنها بنيت بواسطة أناس جاؤوا من القرى ، تعلموا ومكثوا هناك . . . جيلنا وربما الجيل الذي جاء من بعدنا باستثناء قلة ، انشغل بنفسه لذلك اكتفوا ببناء دور لأنفسهم وركبوا سيارات فخمة لكنهم تنكروا لجذورهم . . . تولد لديّ هذا الإحساس وربما أكثر من غيري . . . وربما بسبب الغربة ، وربما أيضا بسبب درجة انتمائي . . .

ولديّ شعور كذلك ، وهذه نقطة قد لا يستوعبها كثيرون ، أن الشهرة توبخني لذا لا أحس بأية متعة من وراء الشهرة ، بعض الناس قد يعتقدون أن ذلك من قبيل التواضع ، لكنه قطعاً ليس كذلك . . . أحس بالتوبيخ الداخلي اذ انني أدرك أن الشهرة جاءتني بسبب تنكري أصلاً لبيئتي ومحاولة اقامة جسور معها من خلال الكتابة . . . . ولا يعني هذا جلد للذات ، الأمر لايصل إلى حد القسوة ، لكن لديّ إحساس قوي بالتقريع بسبب عدم الوفاء بالعهد . . . .

بعض الناس يسألونني أحيانا ، لماذا لايكون لي دور توجيهي على الساحة الأدبية ، أو في مجال الكتابة . . . والواقع أنني أستغرب جداً هذا السؤال !!

لست أنانياً ، لكن حقيقة لا أحس أن لديّ شيئاً محدداً يمكن أن أمنحه للآخرين ، وكثّر الله خير هؤلاء الذين يتكرمون فيقرأون ما أكتب . . .

ثم إن طريقتي لا أستطيع منحها للآخرين ، لأنها نابعة من تكوين وظروف خاصة . . .

وبما أنني لست ملتزماً الكتابة إلى حد كبير ، لاعتقادي الجازم أن في الكتابة شيئاً من عنصر اللعنة ، فكيف اشجع أحداً على أن يصاب بهذه اللعنة ، لذا أفضل أن يواجه كل واحد ، اختار هذا الطريق ، مصيره بنفسه كما واجهته شخصياً ، لأن الكتابة لعنة ولا يوجد عاقل يتمنى أن يصاب الآخرون باللعنة . . .

كما أعتبر نفسي ، بكل صدق ، أنني لست جزءاً من الحركة الأدبية بل ولدي رغبة حقيقية بعدم الالتزام بالأدب . . . وأتمنى أن أكون دائماً على الهامش ، وأسعى دائما للابتعاد عن هذا الموضوع . . . لذلك لا أقترب أبداً مما يسمى بالصالونات الأدبية أو اتحادات الأدباء . . . أنا شخص على الهامش وأفضل أن أكون كذلك . . . هذا الوضع يريحني كثيرا . .

السلطة والمجتمع

لقد كتبت كما قلت ، وألح على ذلك ، لمد جسور بيني وبين بيئة خرجت منها دون مبرر . . . ولكن هناك قطعاً بعض الأمور التي حاولت مناقشتها من خلال الكتابة .

وفي هذا الإطار أعتقد أن لدينا مشكلتين أساسيتين في العالم العربي ، وهما فكرة إنشاء المدينة والسلطة التي تحكم هذه المدينة . . .

وهذه ، في اعتقادي ، هي لب قضية الحضارة التي ناقشها ابن خلدون . . .

منذ أن بدأ التاريخ كانت المشكلة في كيفية إنشاء المدينة ، وماذا نضع فيها؟ ما هو شكلها؟ ومن هم الناس الذين يعيشون بداخلها؟

والمشكلة الثانية هي مشكلة السلطة وبالأحرى قضية السلطة . . . وأعتقد جازماً أن مسألتي السلطة والمدينة شغلتا الإنسان على مر العصور والأزمنة . . .

لأن الإنسان معضلة حقيقية ، لذلك يصعب تنظيمه في مجتمع يحتفظ فيه الفرد بكينونته وفي الوقت نفسه يكون جزءاً من جسم متكامل ومترابط .

وفي روايتي «بندرشاه» تجدني أصف في الفصل الأخير من ضو البيت

ارتباط الفرد بالمجموعة ، حيث أصف كيف جاء الناس للعرس . . . كل واحد مثل حبة القمح في كوم القمح . . . هذا شيء واحد لكن لكل جزئية فيها دور مهم ، فحين نزرع الحبة تخرج من الحبة سنبلة تشتمل على عشرات الحبوب ، ثم إنني أصف كيف تأتي المرأة إلى العرس ، إذ أنها حين تصل قرب الحي حيث يقام العرس تطلق زغاريدها ، حتى تقول أنها موجودة هنا والآن ، وصوت الجميع لا يكون إلا بها ، مثل الجوقة الموسيقية إذا انتقص منها أي صوت لم تعد جوقة .

كما أنني حاولت في رواية بندر شاه معالجة موضوع السلطة والمدينة بطريقة رمزية ، فقد اعتمدت على خصوصيات بيئة شمال السودان ، لا لشيء إلا لأنني أعرفها جيداً . . . وشخصت ذلك في أناس عاديين ، نماذج لمزارعين يعيشون في تلك البيئة ، وحولتهم إلى شخصيات أسطورية . . .

لذلك سنجد أن محجوب ، وعبد الحفيظ ، والطاهر ود الرواسي ، وغيرهم هؤلاء مزارعون عاديون لكنني حولتهم من خلال رواية بندر شاه إلى ميثولوجيا . . . أساطير . . . والأسطورة كما أفهمها هي إعطاء الواقع أبعاداً واسعة في الزمان ، كما فعل هوميروس ، جاء بالإغريق وحولهم إلى رموز تتعامل مع عالم أسطوري .

والواقع أنني منذ أن بدأت الكتابة وأنا أسير في هذا الاتجاه ، الآن يتكلمون عن الواقعية السحرية وما إلى ذلك ، لكنني سرت من قبل في هذا الاتجاه . وهو أمر للأمانة لم ابتدعه لأنه موجود في بيئتنا . ما نطلق عليهم المداحين ، أي الذين يمدحون الرسول ﷺ ، أعتقد أنهم صاغوا ملحمة لأنهم قدموا النبي كبطل ملحمي وأصحابه كأبطال أسطوريين . ولعلني لذلك أخذت أناساً عاديين أمثال سعيد عشا البايتات القوى ، ومحجوب ، وعبد الحفيظ ، والطاهر ود الرواسي ، وحاولت أن أضعهم في إطار أسطوري (ميثولوجي) . . .رغم انهم مزارعون عاديون .

لذلك تجدني أقول ، إن أهم عمل أنجزته حتى الآن على علاته هو رواية «بندر شاه» هذا هو أهم عمل بالنسبة إلي ، على رغم أنه لم يكتمل فقد أصدرت جزءين من هذه الرواية «مريود» و«ضوالبيت» وأتمنى أن أكمل هذا العمل . . . ، وأنني على يقين أن الأمر سيتطلب وقتاً طويلاً جداً .

في هذه الرواية تناولت البيئة والناس الذين يعيشون بداخلها ، وشرعت في

عملية استكشاف Exploration ، لعلاقات البشر بعضهم بعضاً ، من خلال الجانب الغامض في حياة الناس والذي تمثله السلطة . . .

محجوب مثلاً في الرواية كان هو رئيس البلد ، وإذا حسبت البلد بحساب القوى الحقيقية تجدها ليست مهمة ، لكن محجوب كان يرمز أيضاً إلى حاكم الدولة .

لقد لاحظت أن كتاب أمريكا اللاتينية خاصة غابريل غارثيا ماركيز شغلهم كثيراً موضوع السلطة ، خاصة ماركيز في رواية (مئة عام من العزلة) لكن اعتقد أن السلطة كانت تشغلهم تاريخياً وليس أسطورياً . . .

حاولت شخصياً في حدود أضيق بكثير ، أن أوسع الموضوع ، مع تضخيم للشخصيات الروائية ، لذلك خلقت أسطورة «بندر شاه» .

بندر ترمز إلى «المدينة »وشاه «للملك» ، وهذه الرواية كان يمكن أن تسمى «الملك والمدينة» مثلا . . . وهي عبارة عن وعاء حاولت أن أصب فيه كل هذه الحكاية .

وثمة متعة أخرى بالنسبة إلي ، فالأفكار المعقدة في الرواية لو خلقت لها أناساً متعلمين وأساتذة جامعة ، يتناقشون ويفلسفون الأمور سيكون ذلك أسهل . . . . لكن أن تخرج تلك الأفكار المعقدة على لسان أناس بسطاء هذه هي المسألة . . .

لكل ذلك أعتقد أن «بندر شاه» هي أفضل ما كتبت وأفضل عمل بالنسبة إلي هو الفصل الأخير من ضو البيت ، حين يظهر الرجل الغريب الذي أطلق عليه أهل البلد ضو البيت ، ويختفي . هنا بالضبط خلقت منه أسطورة ورمزاً . . . . هذا الرمز يتكون تدريجياً لأنه شخص غريب جاء إلى البلدة ، أطلق أهلها عليه اسم «ضو البيت» ، ثم أدخلوه الإسلام ، وتم ختانه ، وقرروا أن يزوجوه . . . ثم بعد ذلك يذوب كما الوهم!

حوار ثلاثي

سنلاحظ كذلك اختفاء مصطفى سعيد في آخر رواية موسم الهجرة إلى الشمال لكنه اختفى بطريقة مختلفة ، وهذا ما يقودني إلى مسألة أخرى . . . هناك جانب مهم بالنسبة للكاتب ، يتمثل في الحوار الثلاثي : حوار بين الكاتب ونفسه ، وحوار بين الكاتب وأدبه ، ثم حوار بين الكاتب والقارئ .

حين أشير الى أبي العلاء أو أبي نواس في أعمالي ، هذا يشكل حواراً بين الكاتب والأدب وما أحدثه الآخرون من شعراء وكتاب وفنانين ، في نفسي .

ثم هناك حوار بيني وبين نفسي ، فإذا كان هناك من يتابع ما أكتبه على قلته ، سيجد الصور نفسها ، أقلبها يميناً وشمالاً وأحيانًا أنفيها وتارة أثبتها . . .

لذلك ستلاحظ أن مصطفي سعيد ذهب مع الأمواج . . . الناس تقول إلى أين ذهب ، هذا ليس مهماً ، فبعد سنوات أو قبل ذلك الله أعلم ، يخرج ضو البيت من البحر . وكأنما الطاقة نفسها ظهرت بشكل آخر وفي مكان آخر . . .

هذا هو المهم . . . المهم أن الطاقة تظهر من جديد . . . مصطفى سعيد تحيط به أيضا عناصر الغموض كما هو الشأن بالنسبة لضو البيت ، لكن مصطفى سعيد حين يصل القرية سيصبح له اسم ووضع وتاريخ . . . أهل البلد لم يعرفوا ذلك ، لكن مصطفى سعيد حكى كل تاريخه للراوي ، بمعنى آخر أثبته في الزمان والمكان . . . لكن «ضو البيت» لم يكن ثابتاً لا في الزمان ولا في المكان . . .

ولو عدت لوصف مختار ود حسب الرسول في الرواية لضو البيت ، تجده ، وكأنما تشكل من غبار تكثف وخرج منه بنو آدم . . . وحتى مختار ود حسب الرسول حين يصف نفسه يقول إنه تحول إلى غبار حتى أضحى يردد بعض الآيات . . . إلى أن عاد إلى نفسه كمختار ود حسب الرسول ، بمعنى آخر كادت شخصيته تذوب مع هذا الوهم . . .

وحين أخذ أهل القرية ضو البيت إلى المسجد وراحوا يسألونه ، سيقول مختار أنه مسؤول عن وجوده . . . بمعنى أن الرواية تخلق شخصية وهمية ، وأظل ألعب على هذه الفكرة حتى النهاية . . . إلى أن أقول : واختفى من الماء إلى الماء ومن الظلام إلى الظلام . . .

ثم إن الأسطورة يمكن أن نعرف جزءً منها ، وجزء آخر لا نعرفه . جزء واضح وآخر مبهم . لذلك وضعت في «مريود» الجزء الأول من «بندر شاه» ، أبياتاً لأبي نواس ، لأن بها تحليلاً دقيقاً للأسطورة ، بمعناها المعاصر لدى فرويد وعلماء الانثربولوجيا وذلك حين يقول :

غير أني قائل ما أتاني
من ظنوني مكذب للعيـــان
آخذٌ نفسي بتأليف شيء
واحد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الوهم حتى إذا ما
رُمتَه رمـــــتَ مُعمًّى المكـــان

الواقع هو العيان ، والظنون كما يقال في الوقت الحاضر هي الوهم ، وشيء واحد في اللفظ ، هو الرمز . . . أو كما يقال هذه الأيام اشعاعات أو أصداء أو قراءات . . .

وتتجلى عبقرية أبي نواس في انه فنان ، وشخصيا اعتبره «بار أكسلانس» الأدب العربي ، . . . هو قطعاً ليس أعظم شاعر قياساً بالمتنبي لكنه فنان بالمعنى المعاصر . وهو استعمل كلمة وهم بالمعنى المعاصر أي (ILLUSION) ولا أعتقد أنه يوجد أدق من ذلك في تحديد الأسطورة ، والأسطورة لها انعكاسات Reflection ، الإنسان قد لايحيط بها لكن توحي بجوانب أخرى . . .

البلد في الرواية كانت بالنسبة إلي هي الأساس ، لكنني وكما وصفتها في بعض الأحيان «معلقة في الهواء» بمعنى أنها غير مستقرة في الزمان والمكان . . .

وأعتقد أن الكتابة في بعض جوانبها ، تماثل عمل علماء الانثروبولوجي والآثار . . .

هؤلاء يحفرون طبقات الأرض فيجدون أحيانا بعض التحف ، أو الصخور الدالة على حضارة معينة . . . وأحيانا بعض الحلي ، وهم في ذلك مثل الروائيين والمؤرخين ، لأن ما يقولونه لا أحد يستطيع إثباته لأنه دخل في بحر الزمان . . . وهم

مثل الكتاب والروائيين ، وشخصياً أحس بأنني لست غريباً على هؤلاء الناس رغم أنهم قد يستعملون عبارات تبدو محددة ، لكنهم بالضبط مثل الروائيين .

وفي اعتقادي أن الكاتب أو الروائي اركيلوجي بشكل مختلف . . . الكاتب ينظر إلى ما يسمى بالواقع ، لكن لايوجد واقع حين نفكر فيه بعمق . . . لأنه من الناحية الفلسفية لايوجد واقع ، هناك حلم ، كما قال شكسبير ، إذا نظرت إليه من الناحية التاريخية . . . وليس ثابتاً ، حتى الأشياء التي حدثت قبل أسبوع تجد الناس ينظرون إليها بشكل مختلف ، ويحكونها بكيفية مختلفة . . . وكل واحد يعيد صياغتها بنفسه . . . شخصياً لم أسع مطلقا أن اصنع واقعاً لأنني لا أعرف ما هو هذا الواقع . . . .

وأقول في السياق نفسه أن الذاكرة تلعب كثيرا بالإنسان ، وبالنسبة لي حين أتذكر واقعة ما ، فإنني لا أعرف على وجه الدقة هل ما تذكرته هو الذي حدث بالضبط ، أم أن ما تذكرته يناسبني في الكتابة . . . لذلك تجدني دائما أقول أنني أعتمد على انصاف الحقائق ، والأحداث التي يكون جزء منها صحيحاً والآخر مبهماً . . . وهذا يلائمني تماماً . . . بمعنى آخر قد تكفيني جملة سمعتها عرضاً في الشارع لاستوحي منها فكرة للكتابة ، وليس بالضرورة أن أجلس مع صاحب الجملة لاستمع إلى قصته كاملة . . . هذا لا يهمني . . . لكن تكفي جملة واحدة اسمعها وأنا في الطريق ، فقد تثير في نفسي أصداء لا حدود لها . . .

قد لايفهم القارئ أبعاد ما تكتبه ، خاصة حين تكيف ما تسمعه لكي يتناسب وطريقتك في الكتابة ، لذلك أعتقد أن هناك من استوعبوا وفهموا ما كتبت ، وبالمقابل ربما هناك كثيرون لم يفهموا ما كتبت . وهذا شيء طبيعي ، نحن إلى يومنا هذا ، نسعى لاكتشاف ما قاله أبو الطيب المتنبي أو أبو العلاء المعري أو أبونواس . . .

بالنسبة للمتنبي مثلا سبق أن كتبت مقالات حاورت فيها طه حسين حول آرائه عن المتنبي ، أليس من غرائب الأمور أن عالماً كبيراً مثل طه حسين يسئ تماما فهم المتنبي رغم أنه من أعظم شعراء الإنسانية . . . وأعتقد أن الأدب عرضة لسوء الفهم ، وربما تكمن أهميته في انه لا يبلغ رسالة محددة لكن يحرك الأفكار المهمة

حتى يتوصل الناس من تلقاء أنفسهم إلى قناعات محددة .

ومجمل القول ، إن كل صناعة لها آفات والأدب كذلك . . . الحداد مثلاً رغم أنه يتعامل مع النار صباح مساء قد تطير شرارة صغيرة وتحرقه . . . . الزراعة لها آفات لذلك يستعمل المزارعون لفظة «آفة» حين يتحدثون عن أمراض القمح أو القطن . والكتابة خاصة في هذا العصر وفي عالمنا العربي مليئة بالآفات . والذي يطرح أفكاره على الناس علناً عليه أن يتحمل تبعات ذلك ، لذا لايزعجني أحياناً حين يسألني بعض الناس هل مصطفى سعيد يشكل جزءً من سيرتي الذاتية؟ . . . وهو ما يذكرني بالواقعة التي تقول أن أبي تمام عندما استهل إحدى قصائده المشهورة بالضمير ، واستعمل كلمة «هن» في أول البيت ، قال له أحدهم : « لماذا لا تقول ما يفهم»؟ فرد عليه أبا تمام «ولماذا لاتفهم ما يقال»؟ أو حكاية بشار بن برد حين كان حاضرا في أحد المجالس ، وسأله أحدهم : «ماذا تصنع يا شيخ»؟ فرد عليه «انظم اللؤلؤ» ! فقال : «ما معنى أنك تنظم اللؤلؤ» فأجابه بشار : «إنك ترى شيخاً أعمى ينشد الشعر . . . فماذا يفعل؟»

إذن الناس أحرار فيما يسمعون ويقرأون . وحدث أكثر من مرة ان التقي أناساً يقولون لي : لقد أعجبتنا روايتك التي اسمها «طير الجنوب» وهم يقصدون «موسم الهجرة إلى الشمال» ، أو يجيء أحدهم ويقول لك روايتك «رحلة الشمال للجنوب» عظيمة جداً .

أناس يتحدثون عن رواية وهم لا يعرفون حتى عنوانها . . . لكنهم أحرار ويبدو لي أحيانا أن البشرية تائهة ، وأنا تائه معها . . . .

لذلك لا أطالب الناس أن تفهمني كما أريد .

الكاتب نفسه أحياناً لا يعرف ماذا يقول . وماذا يكتب !!

****



ملحق الصور

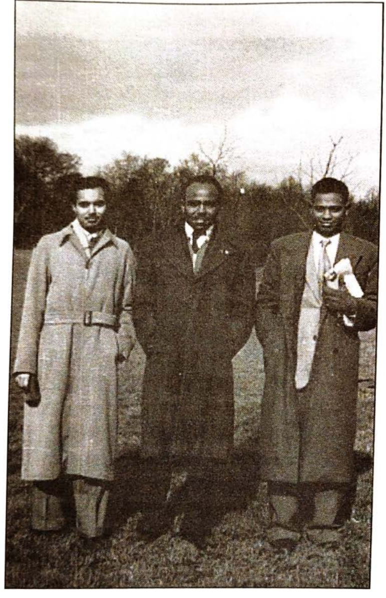




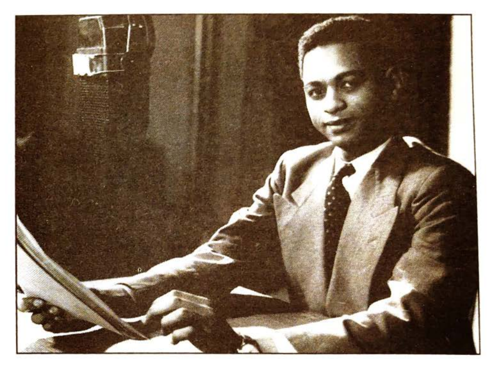
من اليمين المهدي احمد ،السني بانقا، الطيب صالح ، محمد أحمد القباني، صورة التقطت داخل مدرسة واد سيدنا الثانوية في امدرمان في مايو (أيار) عام 1947.



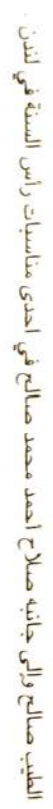
من اليمين الطيب صالح وسيد صالح (عم الطيب) وتاج السر محمد نور وهو زوج شقيقة الطيب (بورتسودان عام 1948).



من اليمين الطيب صالح وفي وسط الصورة المرحوم محمد زكي الحاج (أحد أقارب الطيب) وعباد البربري (لندن 1953)



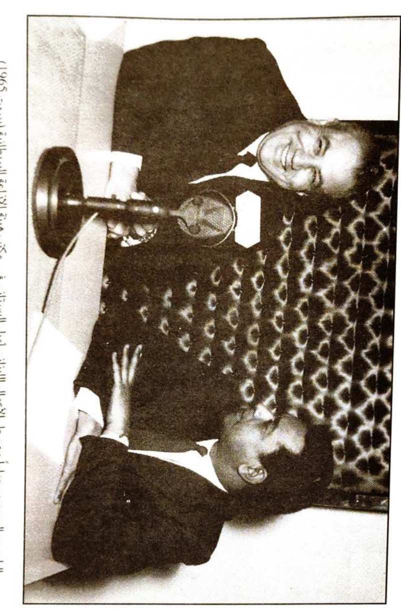
الطيب صالح إبان عمله في هيئة الاذاعة البريطانية (يونيو 1955)



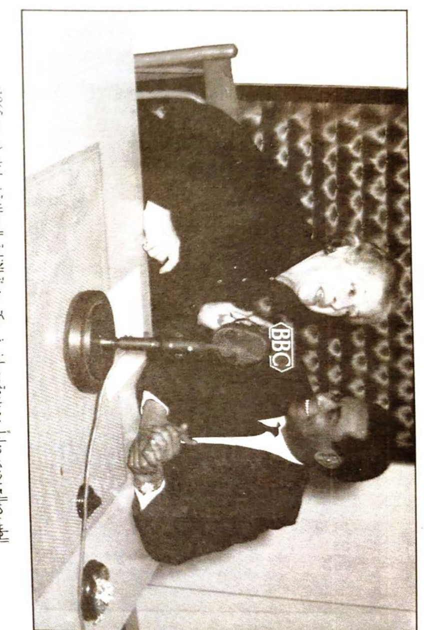
الطيب صالح وإلى جانبه صلاح أحمد محمد صالح في احدى مناسبات رأس السنة في لندن.



الطيب صالح داخل استديو إذاعة بي بي سي يجري حواراً مع مسؤولين حكوميين سودانيين ، وهم من اليمين سيد محمد علي ودكتور أحمد علي زكي وسيد حسن متوكل ، وبدا واقفاً علي أبو عاقله أبو سن الذي كان قد التحق للتو بهيئة الاذاعة البريطانية (1959) .



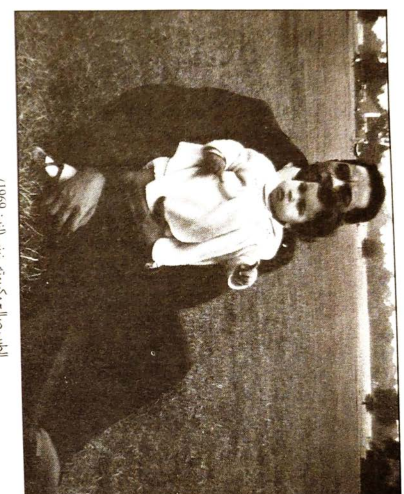
الطيب صالح يجري حواراً مع رجل الأعمال اللبناني أميل البستاني في مكتب هيئة الإذاعة البريطانية (بيروت 1965)



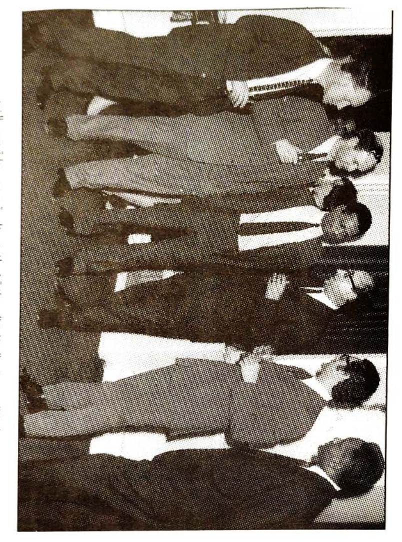
الطيب صالح يجري حواراً مع بديعة مصابني في مكتب هيئة الإذاعة البريطانية في لبنان (بيروت 1965)



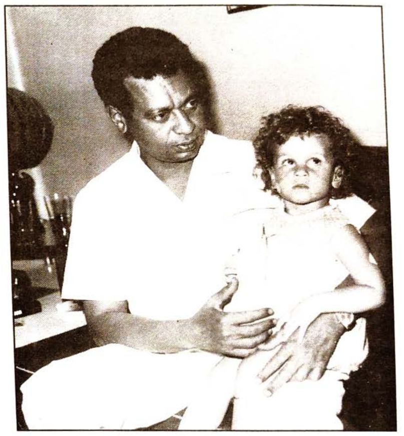
حفل في السفارة السودانية في لندن وبدا من اليمين سيد أحمد الحردلو وعيسى مصطفى وكانا يعملان آنذاك كدبلوماسيين في السفارة
وفي وسط الصورة دينيس جونسون ديفيز مترجم عرس الزين ثم جولي زوجة الطيب صالح (لندن عام 1968)



الطيب صالح وكريمته زينب (لندن 1969)



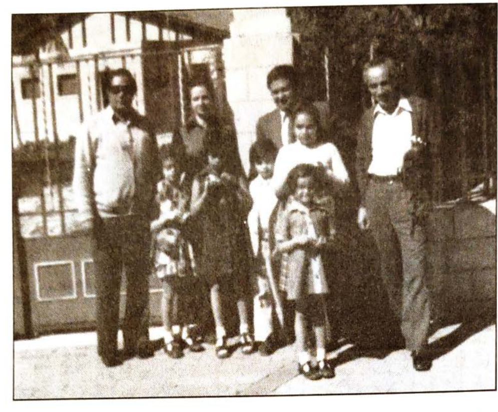
إحتفال جرى في السفارة السودانية في لندن بمناسبة صدور رواية عرس الزين
وبدا في الصورة نديم صوالحة وجبرا ابراهيم جبرا (لندن)

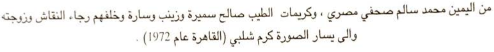


الطيب صالح وكريمته سارة (القاهرة 1970)



جولي زوجة الطيب صالح بالثوب السوداني رفقة ابنتيهما زينب وسميرة
(الخرطوم عام 1970) .

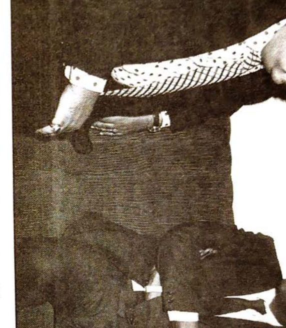




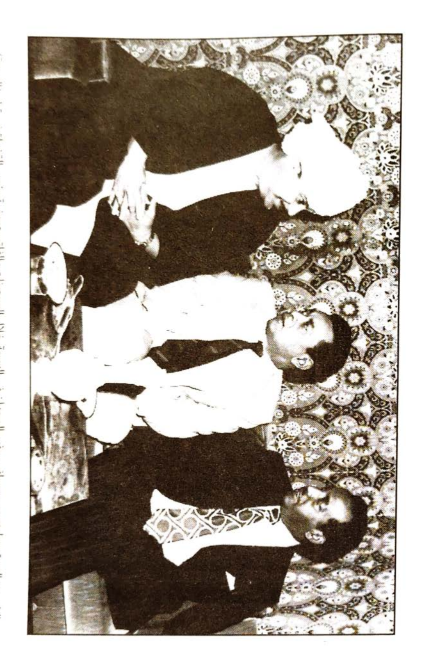
من اليمين محمد سالم صحفي مصري ، وكريمات الطيب صالح سميرة وزينب وسارة وخلفهم رجاء النقاش وزوجته والى يسار الصورة كرم شلبي (القاهرة عام 1972) .



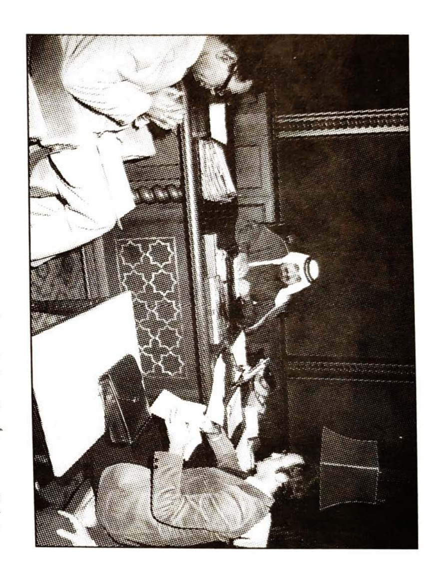
الطيب صالح مع والدته وشقيقه بشير وأبنائه (الخرطوم 1975)



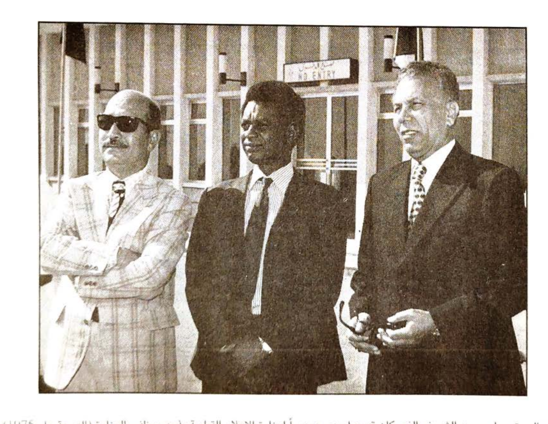
الطيب صالح مع عبد الله الشيتي (الدوحة عام 1975).



الطيب صالح يتوسط عيسى مصطفى سفير السودان في الدوحة خلال السبعينات والقاضي عروضة رئيس القضاة في قطر (الدوحة)



صحفي إيطالي يجري حواراً مع الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير قطر السابق والى جانبه الطيب صالح الذي كان يعمل آنذاك يعمل مديراً عاماً لوزارة الاعلام القطرية (الدوحة عام 1975) .



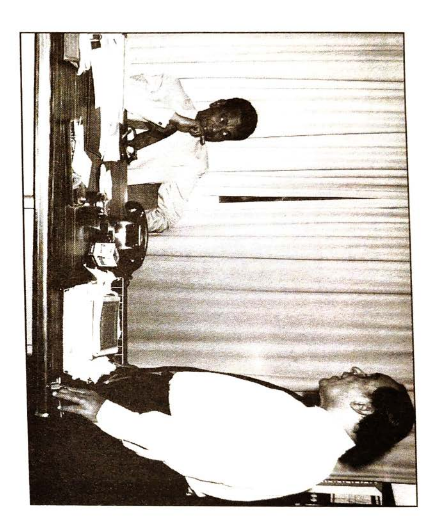
الطيب صالح يتوسط محمود الشريف الذي كان قد عمل بدوره مديراً لوزارة الاعلام القطرية وأحد موظفي الوزارة (الدوحة عام 1975)



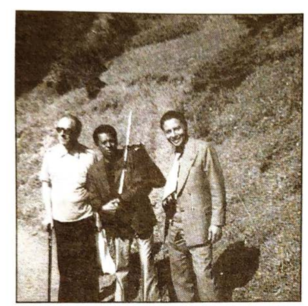
المطرب القطري مرزوق العبدان يعزف لحناً خليجياً والطيب صالح وزكريا الحجاوي يستمعان إليه (الدوحة عام 1976)



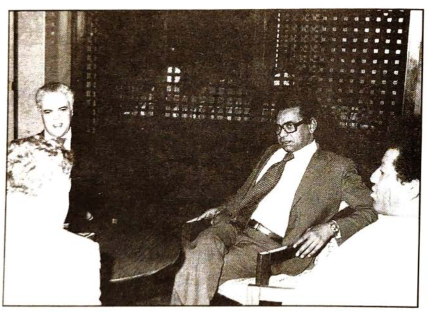
استقبال ولي عهد البحرين في مطار الدوحة (عام 1976)



الطيب صالح مع المرحوم زكريا الحجاوي (الدوحة عام 1976).



من اليمين : عبد الرحيم الرفاعي، الطيب صالح و محمد الطوخي
(بيرن سويسرا 1976)



الطيب صالح وإلى يمينه سفير المغرب في قطر وفي يمين الصورة الدكتور محمد ابراهيم الشوش
(الدوحة عام 1977)



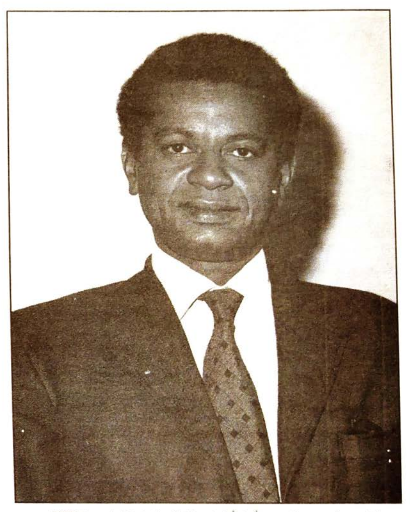
الطيب صالح يتوسط بعض القطريين والعرب (الدوحة عام 1977).



صديقة لأسرة الطيب صالح تمشط شعر سارة وبدت
في الصورة زينب (بيرن سويسرا 1978)



الطيب صالح وشقيقه بشير (لندن 1977)



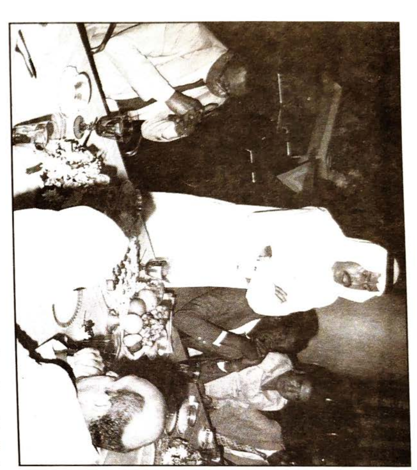
الطيب صالح حين كان مديراً عاماً لوزارة الاعلام القطرية (الدوحة 1978) .



الطيب صالح وكريماته الثلاث (مراكش ١٩٦٧)



جولي زوجة الطيب صالح وبناتها الثلاث (مراكش ١٩٦٧)



حفل وداع أقيم للطيب صالح في الدوحة عام 1980 بعد أن ترك العمل مع حكومة قطر، ويبدو واقفاً في الصورة عيسى غانم الكواري وزير الاعلام القطري أنذاك، وإلى يمينه الطيب صالح وإلى يساره الفاتح عروضة ثم رجاء النقاش



الطيب صالح يلقي كلمة في حفل تكريمه بمناسبة إنتهاء فترة تعاقده مع حكومة قطر (الدوحة 1980)



استقبال جرى لوزير الاعلام الموريتاني الاسبق السيد محمد يحظيه ولد بريد الليل في مطار الدوحة وبدا إلى جانبه عيسى غانم الكواري وزير الاعلام القطري آنذاك وفي وسط الصورة محمد عبد الرحمن الخليفي وكيل وزارة الاعلام القطري وإلى اليسار الطيب صالح وكان آنذاك مستشاراً في ديوان وزير الاعلام القطري (الدوحة عام 1980) .



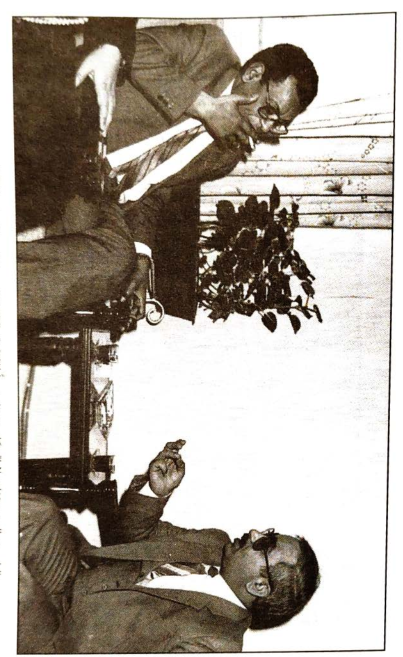
جولي زوجة الطيب صالح وابنتاهما زينب وسميرة (سويسرا 1980)



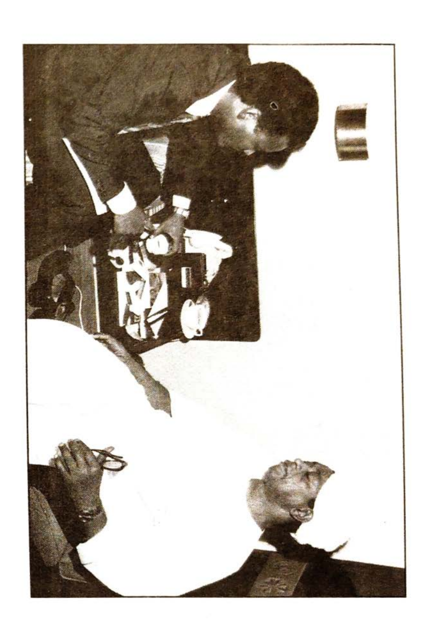
الطيب صالح وزوجته جولي (باريس 1983)



الطيب صالح وإلى جانبه كل من فتح الرحمن البشير وعثمان محمد الحسن (الخرطوم 1983).



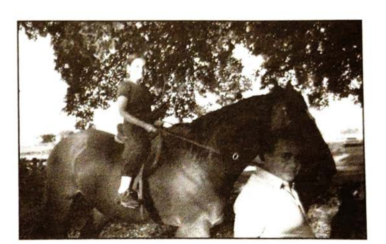
الطيب صالح مع فؤاد بلاطة وكان يومئذ مديراً للإذاعة والتلفزة السورية (دمشق عام 1986)



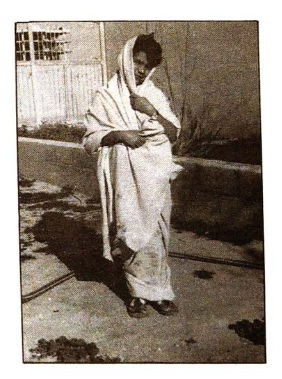
الطيب صالح مع طلحة جبريل ... خلال هذا اللقاء أثيرت لأول مرة فكرة هذا الكتاب (الرباط اكتوبر 1982)



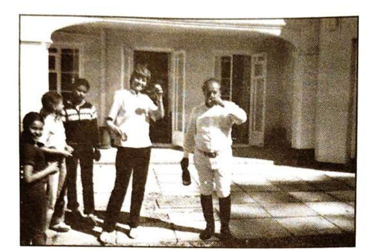
منسي صديق الطيب صالح رفقة زينب كريمة الطيب (ساوث هامتون بريطانيا)



منسي... وسميرة كريمة الطيب تمتطي أحد جياد منسي .



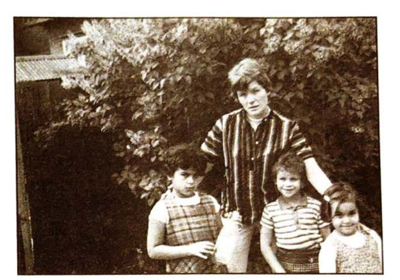
زينب ، البنت الكبرى للطيب صالح بالثوب السوداني (الخرطوم)



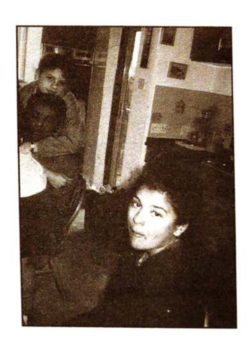
منسي وإلى جانبه أسرة الطيب صالح.



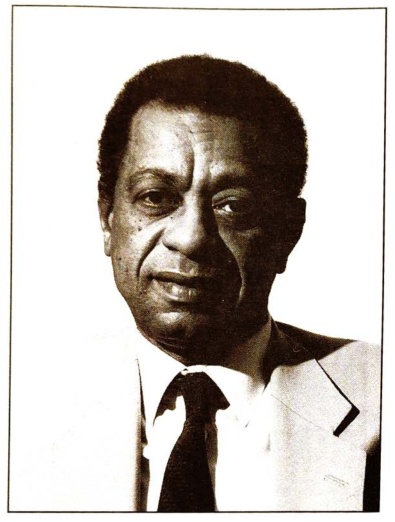
الطيب صالح مع المرحوم عبد الله ولد أربيه (موريتاني) ممثل اليونسكو في الدوحة وبدا عدد من موظفي مكتب اليونسكو (الدوحة 1986)



جولي زوجة الطيب صالح وبناتها (لندن)



الطيب صالح مع ابنتيه زينب وسارة (لندن)



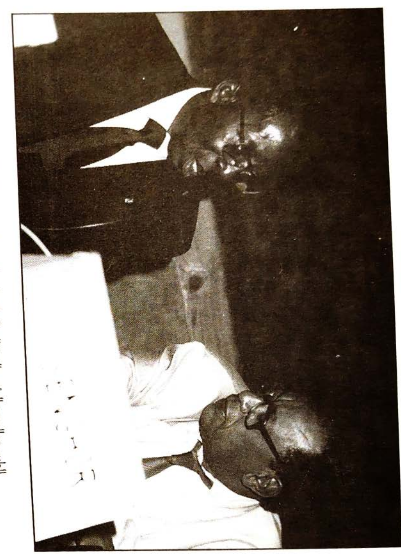
الطيب صالح حين كان يعمل ممثلاً لليونسكو في قطر (الدوحة عام 1987)



الطيب صالح بالزي السوداني (الدوحة 1987)



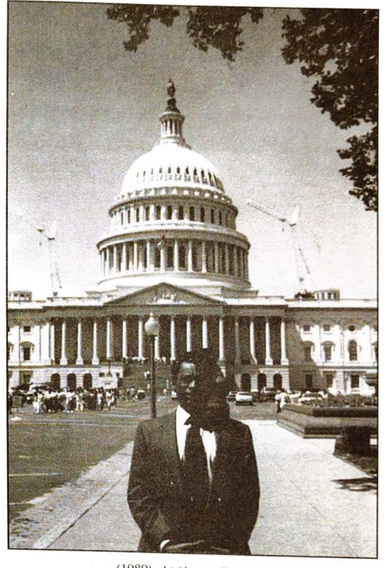
الطيب صالح مع الكاتب البرازيلي جورج أمادو (أصيلة - المغرب-1988)



الطيب صالح مع الرئيس السنغالي السابق ليوبولد سيدار سنغور (أصيلة 1988)



الطيب صالح يتوسط اسامة الباز وناصر العثمان رئيس تحرير صحيفة الشرق (الدوحة 1988)



الطيب صالح في واشنطن (1989)



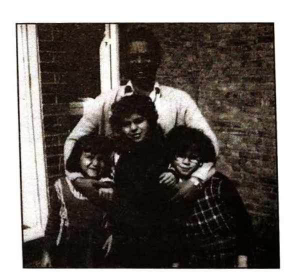
الطيب صالح مع صديقه بروفسير أرشي مافيجي.



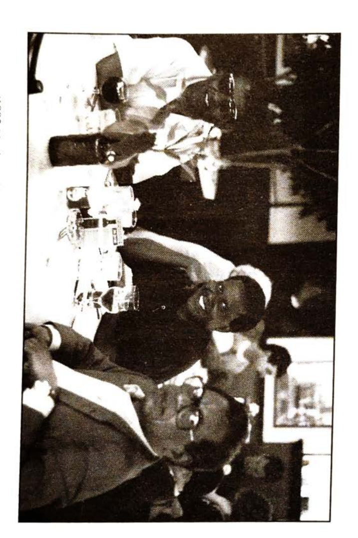
الطيب صالح وأسرته (سويسرا 1990)



الطيب وكريمتاه زينب وسارة (سويسرا)



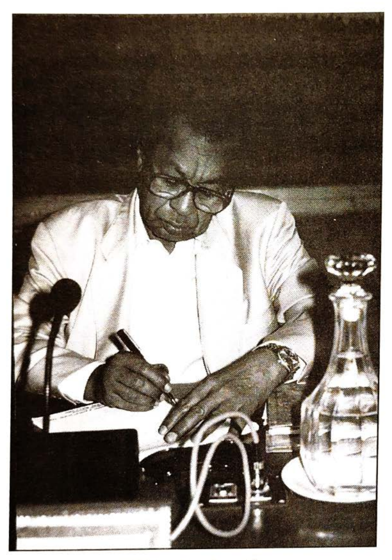
الطيب صالح وكريماته الثلاث (لندن)



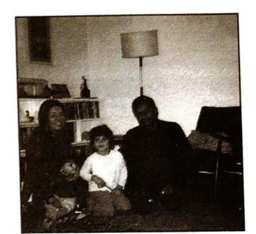
الطيب صالح والفاتح ابراهيم أحمد والدكتور محمد ابراهيم الشوش (بلتيمور أمريكا 1993)



الطيب صالح في أصيلة (1993)



الطيب صالح في أصيلة (1994)



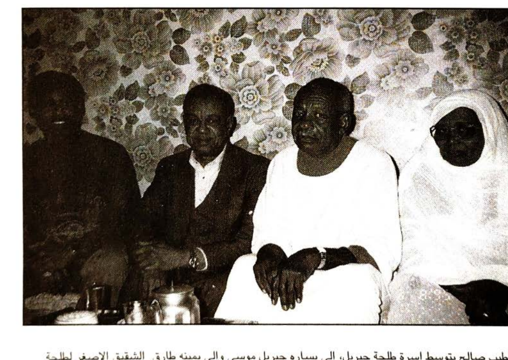
الطيب صالح مع أسرة بروفسير أر شي مافيجي (لندن)



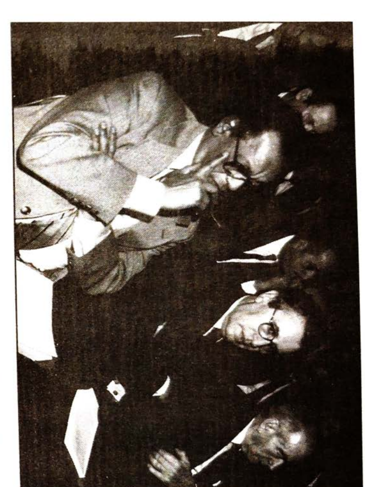
زوجة عبد الرحيم الرفاعي وزينب (سويسرا)



زينب البنت الكبرى للطيب صالح (لندن 1994)

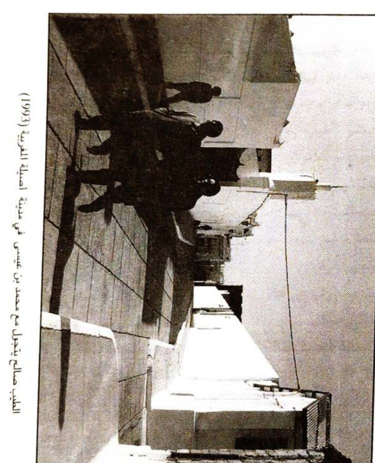


الطيب صالح يتوسط اسرة طلحة جبريل، الى يساره جبريل موسى والى يمينه طارق الشقيق الاصغر لطلحة
وفي يمين الصورة والدتهما





الطيب صالح وإلى جانبه كل من محمد بن عيسى وعبد السلام العجيلي (مراكش 1995)



الطيب صالح يتجول مع محمد بن عيسى في مدينة أصيلة المغربية (1993)

الفهرس

■ اول الدرب	9
■ الفصل الاول : القرية : النيل والنخيل ودفء العشيرة	21
■ الفصل الثاني : الامكنة : من الدبة الى بخت الرضا	37
مدرسة وادي سيدنا	42
ايام الجامعة	44
مدرس في رفاعة	45
بخت الرضا	46
■ الفصل الثالث :لندن على امواج بي . بي . سي	49
داخل الاذاعة	54
الكويكرز وأشياء اخرى	56
عرب لندن	59
■ الفصل الرابع :مدن على الطريق	63
الدوحة	64
بيروت	67
القاهرة	70
يوسف ادريس	72
صلاح جاهين	73
عبد الرحمن الابنودي	74
اصيلة	75
■ الفصل الخامس :السياسة : الوقوف على الحياد	79
العلاقة مع الاحزاب	86

■ الفصل السادس : أصدقائي	91
تاج السر محمد نور	94
محمود احمد محمود	96
مامون حسن مصطفى	96
فتح الرحمن البشير	97
محمد عمر بشير	98
عبد الوهاب موسى	100
منصور خالد	101
حسن أبشر الطيب	101
محمد ابراهيم الشوش	102
رجاء النقاش	102
محمود سالم	104
عبد المنعم سليم	104
عبد الرحيم الرفاعي	104
صداقات ومعارف في قطر	105
اصدقاء في عمان	106
صلاح احمد محمد صالح	107
■ الفصل السابع : البشرية تائهة وانا تائه معها	111
توبيخ الشهرة	116
السلطة والمجتمع	117
حوار ثلاثي	120
■ ملحق الصور	125